٣

كتاب التحرير
السياسى

آسيا المعاصرة

أفول الغرب

الجزء الثانى

تأليف : البروفسور رومين
ترجمة
أحمد عادل

٣

كتاب التحرير السياسى

آسيا المعاصرة

أفول الغرب

تأليف:

البروفسور روميين

ترجمة

محمد عادل

سلسلة كتاب التحرير السياسى

اشراف وتقديم

عبد العزيز فهمى

تصدر عن دار التحرير للطباعة والنشر

رئيس مجلس الادارة

كمال الحناوى

الفنان حسن فؤاد
تصميم الغلاف بريشة



الرئيس جمال عبد الناصر

« ان شعبنا لم يدخر جهدا فى سعيه نحو السلام »

« وان السعى نحو السلام قاد خطى شعبنا الى مراكز دولية أصبحت لها الآن من قوة الاشعاع ما يضىء الطريق نحو السلام »

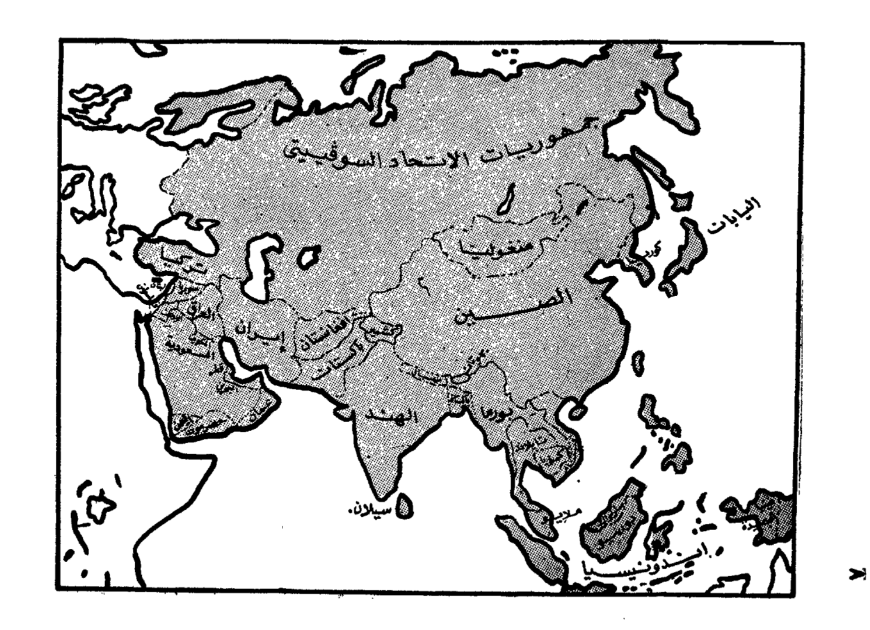
« ان شعبنا يمد نواياه المعززة بالاعمال المحققة للتعاون الدولى عبر كل المحيطات والى كل الاقطــار .. واذا كان شعبنا يؤمن بوحدة عربية ، فهو يؤمن بجامعة افريقية ، ويؤمن بتضـــامن أسيوى افريقى .. يؤمن بتجمع من أجل السلام يضم جهود الذين ترتبط مصالحهم به .. »

« ان شعبنا يعيش على الباب الشمالى الشرقى لافــريقيا المناضلة وهو لا يستطيع ان يعيش فى عزلة عن تطورها السياسى والاجتماعى والاقتصادى »

« ان شعبنا ينتمى الي القارتين اللتين تدور فيهما الآن اعظم معارك التحرير وهو أبرز سمات القرن العشرين »

من الميثاق الوطني ــ ٢١ مايو ١٩٦٢

فهـــرس


جمهوريات الإتحاد السوفييتي
اليابان
منغوليا
الصين
إيران
أفغانستان
الهند
بورما
سيلان
إندونيسيا

تقديم

بقلم : عبد العزيز فهمى

فى الجزء الأول من كتاب آسيا المعاصرة تناول مؤلفه المؤرخ رومين فتـــرة الاحتكاك بين دول الغرب وآسيا ، وماحدث فيهـــا آخر الأمر من ســيطرة الدول الأوروبيـــة الغربية ، المتنازعة عـلى معظم بلدان القارة الآسيوية واوضح كذلك كيف ان البـــلاد الا سيوية حرصت فى مقاومتها للغزو الاجنبى على التعـرف الى الفنـــون التطبيقية والثقافات العلمية والفنية ، التى مكنت الغرب من التغلب على آسيا بكل حضاراتها وثقافاتها القديمة وحرصت فى الوقت نفسه على أن تزاوج بين ثقافاتها الخاصة وهذه الثقافات الأجنبية ولقد ذكر المؤرخ الكبير كيف ان الامبراطوريات الآسيوية القديمة تهاوت كلها تحت ضربات الاستعمار ووقعت فريسة لهذا النظام غير الانسانى وغير الطبيعى •

وفى هـــذا الجـزء الثانى من موسوعة آســيا المعاصرة تناول المؤرخ احداث الحرب العالمية الأولى وما وقع خلالها من تطورات كان ابرزها تحرك القوى الوطنية والقومية فى المنطقة العربية لطلـب

الاســـتقلال والوحدة وكذلك قيام الثــورة الاشتراكية ، فى روسيا القيصرية ونجاحها فى اقامة اول دول اشتراكية فى العالم كله .

وسيلمس القارىء ان هذه الاحداث والتطورات لم تكــن مقصورة في آثارها على وقتــها فحسب ، بل لا يزال لها حتى اليوم آثارها ونتائجها فى تحديد اتجاهات التطور العالمى .

لقد كانت تلك الحرب كما اوضح المؤلف بداية ادراك الشعوب الآسيوية لفظائع النظام الاستعمارى ، وحقائق اتجاهاته ومساعيه مما أزال غشــاوة الادعاء بالمدنية والحضارة الغربية ، وتفوقهما على غيرهما من المدنيات والحضارات ، ومن ثم كانت بداية حقيقيــة لأفول الغرب وأنهيار النظام الاستعمارى .

عبد العزيز فهمى

١

الحرب العالمية الأولى

فى يوم صيف قائظ ـ ٢٨ يونيو ١٩١٤ ـ أطلق لاجىء من الصرب فى البوسنة النار على أرشيدوق نمسوى فأرداه قتيلا فى سارايفو ، التى كانت فى ذلك الوقت مدينة نمسوية قرب حدود الصرب ، وهى قلب ما يعرف الآن بيوغوسلافيا •

وكان الأمر يبدو لأول وهلة عملا محليا لا نتيجة له الا ادانة القاتل ، ويدعى جافريلو برينسيب • الا أن اسمه فى الواقع كان ذا شأن • فوراء حادث الاغتيال كان ثمة مثل عليا ، مثل وطنية • وكان هناك آلاف يتخيلون أنفسهم وقد فعلوا ما فعل برينسيب • كان ثمة عشرات الألوف تراودهم نفس المشاعر والأحاسيس • لكن ذلك اليوم وحده شهد تحول الاحلام الى نية مقصودة ، وتحـــول النية الى فعل صريح • ولا يخفى أن رغبـــات الجموع تستطيع فى موقف معين ، أن تطلق من القوى ما يمكن أن يترك أثره على التاريخ ـ حتى على تاريخ العالم • وقد كان لحادث الاغتيال نفس الأثر الذى يكون للأمطار الاستوائية على التلال الجرداء ، أثر مدمر اكثر منه بناء • ذلك أن الأمطار المتدفقة تتحول الى سيول ، والسيول الى فيضانات مثقلة بالطمى تندفع بسورة الغضب عبر الوديان •

ولقد أدين برينسيب • وقدمت النمسا مطالب الى الصرب ، مطالب لا يمكن قبولها ، لأنها تطعن البلاد فى استقلالها • وبعد

الانذار النهائى جاء اعلان الحرب ـ وبعده أيضا جاءت حملة تأديبية ضد أهل الصرب ٠

ساندت ألمانيا النمسويين ، وبدأت روسيا تعبئة قواتها فى ٣٠ يوليو ٠ وأعلنت فرنسا وألمانيا التعبئة بدورهما بعد ظهر أول أغسطس ٠ وفى السابعة من مساء ذلك الأحد المنذر بالهلاك أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا لأن الاخيرة لم تستجب لمطلب ألمانيا بتسريح الجيوش ٠ وأخذ الفيضان يتدفق من جبال البلقان على أوربا كلها ٠ وفى الثالث من أغسطس أعلنت ألمانيا الحرب على فرنسا ، وفى الرابع منه أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا ٠ وبهذا نشأ ما يعرف بالحرب العالمية الأولى ـ ذلك لأن الاستعمار كان فى ذلك العهد يحيط بالارض كلها ـ فلم تكن آثار تلك الحرب اذا مقصورة على أوربا وحدها ٠

ولقد استمر الصدام الكبير ـ رسميا ـ لمدة ١٥٥٣ يوما وليلة ٠ وأعلن وقف اطلاق النار فى الخنادق الموصلة بشمال فرنسا ، فى الحادية عشرة من صباح الحادى عشر من نوفمبر عام ١٩١٨ ٠

كانت الحرب أصلا صداما بين دول أوربا الكبرى ، ثم أصبحت حربا عامة ٠ وفى صيف عام ١٩١٨ لم يكن قد بقى فى أوربا على الحياد سوى عدد قليل من الدول الصغيرة : هولندا وسويسرا والدنمرك والسويد والنرويج وأسبانيا ٠ اما افريقيا ـ وهى أقرب مستعمرات أوربا اليها ـ فقد أقحمت فى تلك الحرب منذ البداية، ولم تنج منها سوى الحبشة المستقلة ٠ كذلك اشتركت كندا والولايات المتحدة فى الحرب ٠ وكانت المكسيك والأرجنتين وحدهما دون سائر دول أمريكا اللاتينية هما اللتان بقيتا على

حياد حقيقى • وفى آسيا ، اقحمت أيضا أراضى المستعمرات فى الحرب تلقائيا • ولم تحتفظ من دولها المستقلة الا ايران وافغانستان بحياد اسمى • وكانت اندونيسيا هى المستعمرة الاسيوية الوحيدة الهامة التى بقيت بمنأى عن الحرب ، وذلك بفضل حياد هولندا •

ماذا كانت الاهمية الخاصة لتلك الحرب بالنسبة للتاريخ الاسيوى ؟

لقد رأينا ـ عند معالجة الفترة بين عامي ١٩٠٠ و ١٩١٤ ، أن الطبقة المتعلمة ، فى أراضى المنطقة الخارجية مابين مصر وبحر بيرنج، وفى أراضى المنطقة الداخلية مابين اليابان والهند ، قد واجهت التحدى الاوربى بنفس رد الفعل الذى أبدته كل من تركيا واليابان •• وهو ذلك النداء أو تلك الدعوة التى تقول : تعلموا من الغرب من أجل مقاتلة الغرب • والتاريخ ـ حتى بالنسبة لأولئك الذين يؤمنون بقانونَ الهى ـ انما هو من صنع الناس • وفهم التاريخ معناه فهم الناس •• أى أن يكون المرء قادرا على أن يضع نفسه مكان الآخرين وأن ينزل الحلبة بنفسه •

كيف كان يمكن أن يكون رد الفعل عندنا ؟ •• كيف كان يمكن أن أفكر لو أننى كنت فى تلك الأيام مصريا أو صينيا ؟ ان قبول أفكار الغرب قبولا جزئيا كان ينطوى بالنسبة لكثيرين من الاسيويين على موقف من العسير حله من الوجهة النفسية • فمن طبيعة الانسان أن يعجب بأشياء وأن يكرهها فى الوقت نفسه • وغالبا ما يؤدى هذا الى شعور بعدم الأمن ، وهذا الشعور يعوقُ نمو الوعى الذاتى لدى المرء ـ الذى هو بدوره شرط أولى للحرية • ومن العسير أن

نذكر كيف كان من الممكن أن يتحقق هذا النمو لو لم تكن ثمة حرب عالمية • فلسنا نستطيع ، فى أى عهد من عهود التاريخ ، أن نقول : لو لم يقع هذا •• لاختلفت الأمور عن ذاك ؟ اننا نسمى ذلك ـ وجهة نظر « لو » ـ أى وجهة النظر التى تقول « لو لم يحدث هذا أو ذاك •• الخ •• » اننا لا نستطيع ، فى ظل أفضـــل الظروف ، الا أن نقول : ان هذا هو ماحدث بالفعل ، وان ما وقع بعده من احداث علينا أن نفهمه كنتيجة من نتائج ذلك الحـــدث السابق • وبهذا نستطيع أن نقول ان الوعى الذاتى الاسيوى كان فى عام ١٩١٨ قد نما الى حد كبير بالقياس الى ايام ما قبل الحرب • ونستطيع أن نفسر هذه الظاهرة ، بأنها نتيجة لحقيقة محـــددة ، وهى أن الاسيويين تمكنوا فى الحرب ، وبسبب الحرب ، من أن يجـــدوا لأنفسهم مخرجا من مشكلة كراهية الغرب وتبنى وسائله بالضرورة فى الوقت نفسه • وقد نجد الدافع الرئيسى الى هذا المخـــرج فى حقيقة اخرى تقول ان الأوربيين بدأوا يصبحون فى وقت الحرب موضع ازدراء واحتقار • والاحتقار والكراهية كلمتان بينهما صلة قرابة كبيرة • لكننا يجب ألا نحملهما على معنى أن كل اسيوى كان فى عام ١٩١٨ يحتقر ويكره كل أوربى • وانما المعنى كله هو أن هاتين الكلمتين يمكن أن تعبرا أفضل تعبير عن الشعور العام ، الذى كان غالبا شعورا غير واع •

وربما يسأل سائل ، هل تؤدى الحروب لا محـــالة الى هذا الاحتقار ؟ قد لا يحدث هذا • وفيمايتعلقبآسيا فانجوهر المسألة انما هو فى الحقيقة القائلة أن الشعوب البيضاء قد زعمت أنها تملك ثقافة خاصة ، لا بد من نشرها الى آســـيا وسائر مناطق المستعمرات لصالح البشرية • وقد خدمت « حروب الرجل الأبيض »

هذا الغرض • لكن حرب عام ١٩١٤ كانت كالصاعقة فى انقضاضها ـ حتى بالنسبة لأوربا • فقد كان المعتقد فى تلك السنوات أنه ليس من المرجح نشوب صدام خطر حقيقى بين الدول الأوربية • وعندما وقعت الحرب بالرغم من ذلك ، كان الاسيوى يقول ، أو يفكر على النحو التالى : أنتم أيها البيض تدعون أنكم أفضل منا ، لكنكم لستم كذلك • ان المفروض أن يكون الهكم اله محبة ، لكن أعمالكم ليس فيها شيء من تلك المحبة • انكم تدعون نقل الثقافة الى آسيا ـ لكن كل ماتأتون به هو الفن التطبيقى ربما تكونون سادةاكثراقتدارا على العالم الطبيعى ، تعرفون وتنتجون أكثر مما نعرف وننتج ، لكن هذا ينطبق على الجوانب المادية فحسب • ربما تكون ثقافتكم ذات فائدة ـ وان كان هذا أيضا أمرا تتسع له المناقشة ـ لكن ما جدوى تسيد الطبيعة اذا لم تستطيعوا أن تتسيدوا أنفسكم ؟

أما مظاهر الثقافة الأوربية الأخرى ،التى تبعث على احترام أقل ، كتلك المظاهر التى كشفت عنها الأفلام مثلا ، فانها بدورها جعلت الاسيوى تراوده خواطر ثانية ـ فيبدأ يفكر على النحو التالى : اننى الآن مستعد لان آخذ عنكم وسائلكم ، وذلك لمزاياها الواضحة فى بعض المجالات ، لكن لدى هدفا أعلى استهدفه •• اننى أدعو لتحرير آسيا ، ولتحسين مواطنى من بنى جلدتى ويجب ان نتذكر ان الهوة بين المسيحية فى معناها المثالى وبين معناها الأوربى كانت تبـــدو للمواطن الأسيوى اكبـــر مما هى عليـــه فى الحقيقة • وقد كان المسيحيون العاملون فى آسيا فوق المتوسط بصفة عامة ـ وهم من بعثات التبشير الكاثوليكية والبروتستانتية • أما سائر الأوربيين فكانوا عامة تحت المتوســـط ـ أى كانوا من

الجنود والموظفين والمزارعين والتجار . وكان للطبقتين الأخيرتين هدف واحد هو الاثراء بغير حدود فى وقت محدود .

ومن جانب آخر استطاعت الحرب أن تنتزع من الأوربيين ثقتهم بأنفسهم ـ تلك الثقة التى كانت تملؤهم منذ عام ١٩٠٠ . فقد بدأ كثيرون منهم يتشككون فى قيمة الثقافة الغربية . أما أولئك الذين راحوا يتساءلون فى ضمائرهم عما اذا كانت أوربا لا تتخذ الطريق الخاطىء ، فلم يكونوا قلة . فهل كان لثقافة مهددة بالتدهور الى حد الدمار المتبادل الحق فى أن تفرض نفسها على سائر الشعوب ؟ وماذا اذن تكون الحصيلة النهائية لكل هذه الصناعة ، وهذا التوسع ، وتلك المنجزات الثقافية والفنية للغرب ؟ لقد كانت أوربا تشعر بأعباء ، وكان كتاب اشبنجلر « افول الغرب » و الذى نشر فى عام ١٩١٨ وان كان مؤلفه قد فكر فيه وكتبه فى وقت ما قبل الحرب ، يجتذب عددا لايحصى من القراء بالتشاؤم البادى فى عنوانه ، ذلك العنوان الذى كان يكشف عن طريقة تفكير مؤلفة الموهوب

والى جانب هذه التغيرات السيكولوجية ـ ازدياد ثقة الآسيويين بأنفسهم وتناقص ثقة الأوربيين بأنفسهم ـ ظهر أيضا خلال الحرب تغير فى المجال المادى كان له شأن مشابه . فقد بدأت آسيا تكون صناعتها الخاصة ، وليس من العسير أن نعثر على أسباب ذلك . فقد كانت الحرب العالمية الأولى تختلف عن جميع الحروب التى سبقتها ، وكانت أسوأ منها كذلك : سببت خســـــائر أعظم ، واقتضت التضحية بأرواح أكثر – وكانت حربا مطلقة ، أو حربا شاملة كما نقول اليوم . وهذا هو السبب فى أن معاصريها أطلقوا عليها اسم الحرب العالمية لكنها لم تكن حربا عالمية بمفهـــــوم

الحرب العالمية الثانية ، فقد كانت فى الواقع حربا بين الكتلة الثقافية الالمانية ، المانيا وامبراطورية النمسا والمجر ، وبين بريطانيا وفرنسا وروسيا ، والولايات المتحدة من بعد • وفيما عدا اوربا ، لم تشتعل الحرب الا فى الشرق الأوسط لأن تركيا كانت مقحمة فى تلك الحرب نتيجة تحالفها مع دول وسط أوربا • واستمرت هذه الحرب أربع سنوات دون قرار حاسم ، بينما كانت شمال فرنسا وشمال ايطاليا وروسيا تعانى من فظائعها كاملة • ظلت الجيوش التى تقوم بالملايين أعواما أربعة وهى تقيم فى الخنادق تحاول عبثا أن تخترق خطوط العدو فى حملات هجومية تكلفها الكثير • ولنضرب الآن مثلين نستشهد بهما لاعطاء القارىء فكرة عن فظاعة تلك الحرب • ففى ٢١ فبراير عام ١٩١٦ قام الألمان بهجوم كبير على فيردان • وعندما حملهم الفرنسيون على التراجع واتخاذ موقف الدفاع فى يوليو من ذلك العام ، كانوا قد حشدوا نحو ٢٥٠ الف جندى بينما كان الفرنسيون قد حشدوا بدورهم نحو ٢٧٠ الفا • وفى الوقت نفسه ، وفى مكان آخر من الجبهة ، كانت معركة السوم قد بدأت فى يوليو • ثم انتهت فى نوفمبر بفعل الأمطار والوحل — لم يكسب الحلفاء فى نهايتها الا قرابة ٣٠٠ ميل من الأرض ، موغلين نحو ستة أميال — وهى أرض ذات قيمة استراتيجية ضئيلة ، لكن البريطانيين خسروا لقاء ذلك ٤٠٠ ألف رجل ، والفرنسيون ٢٠٠ ألفا والالمان قرابة نصف مليون • وقد بلغ مجموع القتلى فى الحرب كلها ١٠ ملايين جندى •

واقتضت الحرب من الدول الكبرى مطالب بالغة التطرف • فكل المصانع ، وكل شبكة المواصلات ، وعمال المناجم والمزارعين كانوا يعملون فقط من أجل الجبهات المترنحة التى لا تقنع ولا

تشبع ، وظهرت الثورة فى عالم الأسلحة بصبغتها الكاملة • فقد استخدم الألمان الغاز - الكلورين - فى ٢٢ ابريل عام ١٩١٥ فى معركة « ايبر » واستخدم البريطانيـون الدبابة لأول مرة فى ١٥ سبتمبر خلال معركة السوم • وبدأ حصار الغواصـــات الألمانية لبريطانيا فى فبراير عام ١٩١٥ • وبدأت حرب الغواصات غير المقيدة بعد ذلك بعامين - وهى التى أدت الى دخـول الأمريكيين الحرب •

ولما أصبح الاقتصاد الأوربى كله موجها للأغراض الحربية • قلت من ثم المنتجات التى تصدر الى الشرق • وحتى هذه المنتجات القليلة ، كان ثمة احتمال ضئيل بامكان نقلها الى أراض على ذلك البعد ، بسبب الحصار الألمانى ونقص السفن • وكان من نتيجة ذلك أن بدأت صناعة وطنية تنهض فى آسيا فى تلك الأيام السود بالنسبة للغرب - حدث ذلك في اليابان مثلا حيث نشأت صناعة لم تكن لتقدر على انشائها اية دولة اســـــيوية أخرى حتى ذلك العهد •

وهذه الأزمة فى العلاقات التجارية بين أوربا وآسيا ازدادت وتعمقت أكثر من اية ازمات سابقة • فقد لاحت بوادر تغير كيانى فى العلاقات الاسيوية الاوربية التى كانت تبدو بالغة الاستقرار ، وظهر الأساس الاقتصادى لقيام طبقة متوسطة فى الدول الاسيوية •

أما العامل الثالث فى يقظة آسيا خلال سنى الحرب ، فكان عاملا سياسيا • ذلك أن الدول الكبرى لم تكن فى تلك الأعوام فى مركز يسمح لها بقمع حركات المقاومة فى المستعمرات • وكان لا بد لها من أن تفعل شيئا - غير أنه لم يكن قد بقى لها الا أن ترسل

الوعود ، لا وعود التحرر بل وعود الحكم الذاتي • وبديهي أن هذه الدول لم تكن تعني الوفاء بوعودها •• وانما أرسلت هذه الوعود على افتراض أنها ستعمد الى سحبها متى تحسنت الأحوال في أوربا ــ وهذا أمر يجب الاعتراف به الآن ــ ومن ثم يعاد الحكم الاستعماري الى ما كان عليه قبل الحرب • لكن ما حـــدث هو أن هذه الوعود المخادعة كان لها وقع كبير على وعي الاسيويين • كما كان ثمة أثــر مشابه عندما ظهرت الاثار الرجعية لذلك في عام ١٩١٩ فعـــرف الاسيويون منها مقدار ماخدعوا • وأصبحت كراهية الأسيـــاد ــ التي انكشفت عندئذ بطريقة غادرة ــ والتي كان يخفيها الاحترام فيما سبق ــ أصبحت عندئذ واضحة ظاهرة للعيان على نحــو يثير الألم •

كذلك وقع تطور مشابه في أوربا نفسها • ذلك أن الحكومات الأوربية كانت مضطرة لسوق الوعود لا لمستعمراتها فحسب ، بل لشعوبها كذلك ، لا سيما للعمال والجنود ، الذين انتقلـــوا الى مراكزهم في المصانع وأرض المعارك ، خاصـــة في عـــامي ١٩١٧، ١٩١٨ ، مدفوعين بأجور أعلى وبأمل الحصول على قدر أوفر من السلطان السياسي • ولم يتسن منع الجبهة من الانهيار الا بنظـام حربي شـــديد القســـوة • أما بالنسبـــة لشعب آسيا ، فقد اصبح العامل الأوربي أكثر ثقة بنفسه نتيجة الوعود البعيدة المدى ونتيجة الامتيازات المؤقتة • ونظرا لما حدث بعد ذلك من خيبة أمل أصبحت البرجوازية أكثر الطبقات تعرضا للكراهية والاحتقار • وثمة صلة معينة بين الحركة الوطنية في المستعمرات وسائر الأراضي الاسيوية وبين الحركة العمالية في أوربا • فقد كان لكليهما نفس العدو ــ البرجوازية التي كانت ترغب في استعادة مركزها الذي كان لها

قبلَ الحرب بلّ أن هذه الصلة كانت اوثق من ذلك ، اذ ظهـرت فى آسيا أيضا نتيجة بداية التصنيع ، حركة عمالية بالمفهـــوم الحديث لهذه العبارة • وكان عامل الغرب نموذجا يحتـــــذى بالنسبة للعـامل الاسيـوى • وبذلك صـار الموقف النفسى أيسر ـ لأن العامـل فى شنغـهاى وجاكرتـا وبومباى لم يكن فى حاجة الى ان يكـره العـــامل الأوربى •• فقـد كانوا جميعـــا ينتمون الى الطبقات المضطهدة ، ومن ثم شعروا بأنفسهم متحدين ضد مضطهديهم • وكانت مقاومة البرجوازية تعنى بالنسبة للعـــامل الأوربى المقاومة الاجتماعية ضد الراسـمالية ، وكانت اليقظـــة الاشتراكية فى الدول المهزومة خاصة ـ ألمانيا وامبراطورية النمسا والمجر وروسيا ـ بمثابة نهضة جماعية حقيقية • وكانت الأحزاب الاشتراكية الرسمية فى كثير من الحالات معتدلة على نحو بالغ • ومن ثم كان الشيوعيون هم الذين سعوا بالثورات الى منع العودة للنظام القديم • ومن أمثلة ذلك حركة العصـــيان التى وقعت فى الاسطول الالمانى لأعالى البحار ـ فى كييل يوم ٢٨ أكتوبر ١٩١٨ ـ وهى الحركة التى انتشرت فى أنحاء ألمانيا فى أوائل نوفمبر وأدت الى انشاء مجالس العمال والجنود على النمط الروسى • ثـم ثورة الاسبرتاكيين فى برلين فى يناير عام ١٩١٩ ، وهى الثورة التى قمعت قمعا دمويا • وكذلك نشأة الجمهوريات الشيوعية فى بافاريا (ابريل ١٩١٩) والمجر (صيف ١٩١٩) • وبقى علينا أن نذكر أكبر هذه الأمثلة ، ذلك الذى ضربته روسيا ، وهى الدولة الوحيدة فى أوربا التى لم تسحق ثورتها رغم جميع جهود اعدائها •

ففى ٧ نوفمبر ١٩١٧ نشبت الثورة البلشفية فيما يعرف الآن بلينينجراد ـ وسنفرد لها قسما خاصا ، لامن أجل اهميتها لروسيا

فحسب ، بل من أجل نفوذها الضخم الذى كان ولايزال على آسيا، لاسيما فى مجال ادخال الأساليب الحديثة على أكبر جزء من شمال آسيا - وهى سيبريا ،التى كانت عندئذ لاتزال أرضا بكرا ،وكذلك فى احداث ثورة فى ثقافة آسيا الوسطى واقتصادها - وهى المنطقة التى يقطنها المسلمون بين بحر قزوين والصين ، ثم اخيرا لنفوذها وأثرها على سائر آسيا ، ولو بطريق غير مباشر .

نستطيع أن نتناول ذلك بايجاز نسبى ، اذ قد كتبت فيه مكتبة كاملة . فمثلا ، كان من نواحى الأثر المثمر للثورة الروسية على آسيا أن أصبحت المشكلة الاجتماعية حقيقة تفرض نفسها ، الى جانب المشكلة الوطنية ، اى مسألة الاستقلال فى ظل حكومة وطنية . وهذه المشكلة الاجتماعية هى ماذا يمكن أن تؤول اليه حال العامل والفلاح فى الدولة المستقلة . كذلك دلت الثورة البلشفية على أن من الممكن الاستغناء عن المرحلة البرجوازية للتحرر الوطنى فى كثير من المناطق وفى كثير من الظروف - وكان هذا أيضا عاملا حاسما فى التاريخ الحديث لآسيا .

وثمة دولة اخرى كانت التغيرات فيها خلال الحرب - ونتيجة للحرب - ذات اهمية حاسمة بالنسبة لآسيا . فقد كان هناك اولا ظهور تلك الدولة فى الصف الأمامى للدول الكبرى . وهذا شيء توقعناه فيما رأينا من قبل من احتلال أمريكا لكوبا والفيلبين . لكن حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ غيرت العلاقات بين أوربا وبين أمريكا تغييرا أساسيا أكثر مما غيرت العلاقات بين أوربا وبين آسيا . فقد دخلت أمريكا الحرب فى ٦ أبريل عام ١٩١٧ ، ردا على التهديد الألمانى بشن حرب الغواصات غير المقيدة حتى ضد الدول المحايدة . وكانت الجيوش الانجليزية الفرنسية فى ذلك الوقت متعبة منهـــوكة قد

زايلتها الروح المعنوية • فلعب المليون جندى الذين وصلوا من أمريكا الى الجبهة فى صيف عام ١٩١٨ دورا حاسما فى تحطيم المقاومة الألمانية ، وبعثت الولايات المتحدة بشحنات ضخمة من العتاد الحربى على متن السفن الى الحلفاء • وفى شتاء عام ١٩١٨ وجدت أوربا أن أمريكا قد أصبحت بلادا غنية ، وتحولت من دولة مديونة الى دولة دائنة ، وكانت أوربا فيما سلف من أيام قد اقرضت الولايات المتحدة من مالها ـ والحق أن السكك الحديدية الأمريكية وكذلك التصنيع الأمريكى قد تلقيا تمويلهما الى حد كبير من رأس المال البريطانى والهولندى • لكن الأمور صارت حينذاك مختلفة ، وأصبحت الدولارات تتدفق على أوربا • وأصبح للولايات المتحدة عندئذ ولأول مرة القوة والرغبة فى انتهاج سياسة امبريالية على نطاق واسع فى آسيا ، لاسيما فى منطقة المحيط الهادى • وربما لم تكن هذه السياسة على نفس نطاق السياسة الأوربية ، لأن الولايات المتحدة لم تكن لها تقاليد استعمارية ، كما كان كيانها الاقتصادى والاجتماعى مختلفا عن الكيان الأوربى • بيد أن سياستها لم تختلف على أية حال عن سياسة أوربا من أية وجهة مادية • وقد أطلق على تلك السياسة اسم « امبريالية الدولار » ، وكانت تبدو فى بادىء الأمر خيرة ـ وكانت هذه السياسة الى حد ما اقل خطرا وأقل رجعية ـ لكن بالرغم من كل ذلك كان ثمة وحش ضار قد انطلق يعيث فسادا فى الحديقة الاسيوية وقد عقد عزمه على السلب والنهب •

اذا كان كل ما قيل حتى الآن يهيىء سببا طيبا لتخصيص سلسلة من الفصول لآسيا خلال الحرب العالمية الأولى . فثمة حقيقة أخرى تعزز وجهة النظر هذه ، وهى أن الحرب ، رغم أن مسرحها الرئيسى

كان فى اوربا ، كان لها مسرح جزئى فى ث آسيا . فقد حدثت حملات فى تركيا الاسيوية ـ فى بلاد العرب ، فيما يعرف الآن بسوريا ، وفلسطين ، والاردن ، والعراق ـ وكذلك فى ايران ومصر . وقد حاربت تركيا الى جانب المانيا . وفى جانب الحلفاء لعبت كل من الصين واليابان دورا فى الحرب ، ولا يمكن ـ عبر التطور الطويل الذى استغرق أكثر من نصف قرن والذى نطلق عليه اسم يقظة آسيا ، أن نتجاهل الحرب العالمية الأولى كعامل فى هذا التطور ، مثلما لا نستطيع أن نتجاهل الحرب الثانية كعامل فى نفس هذا التطور .

٢

الامبراطورية التركية

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى فى أغسطس عام ١٩١٤ بين دول أوربا الوسطى وبين بريطانيا وفرنسا وروسيا ، كان على الدول الأخرى مضطرة أن تقرر ما اذا كانت تبقى على الحياد أو تشارك فى الحرب ، وفى أى جانب لو اختارت المشاركة . وسرعان ما وجدت تركيا جوابا لذلك . فقد بالغ وزير الحربية - أنور باشا (١٨٨١ - ١٩٢٢) ، وهو أحد المتطرفين الذين قادوا انقلابى ١٩٠٨ و ١٩١٣ ، فى تقدير القوة العسكرية والموارد الاقتصادية لالمانيا ، على ما بدت عليه من قدر كبير فى ذلك الوقت . وكذلك فعل كل من طلعت (١٨٧٤ - ١٩٢١) وجمال ، وان كان ذلك بدرجة أقل . الـم تستطع الجيوش الالمانية فى غضون اسابيع قلائل أن تصل الى قلب فرنسا ؟ وكان قد سبق ذلك ، فى صيف ١٩١٤ ، ان وقعت تركيا معاهدة عسكرية سرية مع المانيا . وكانت تركيا هى التى سعت فى ذلك . ففى ذلك اليوم الحاسم الدقيق - أول أغسطس - كانت تلك المعاهدة موقعة عندما أعلنت المانيا الحرب على روسيا . وبعد أن أوشكت التعبئة أن تكتمل قام سرب تركى دون انذار بضرب ميناءى أوديسا وسيباستبول المطلين على البحر الاسود (فى ٢٩ أكتوبر) . فأعلن القيصر الحرب على تركيا فى ٢ نوفمبر ، وتبعه فى ذلك كل من بريطانيا وفرنسا فى الخامس من ذلك الشهر .

وكانت موالاة أنور باشا للالمان أمرا لا يجـــافى المنطق ، ذلك أن

بريطانيا كانت فى ذلك الوقت اشد خطرا على تركيا ـ أكثر من المانيا ـ ولو كانت قد انتصرت ، لكانت نتائج ذلك بالطبع أمرا متروكا للحدس والتكهن • وكانت بريطانيا أيضا هى التى اتخذت على الفور اجراءاتها فأعلنت ضم قبرص اليها (احتلتها عام ١٨٧٨ وأصبحت منذ ذلك الوقت مستعمرة بريطانية) وأعلنت الحماية على مصر (فى ١٨ ديسمبر) من أجل ضمان قناة السويس • وقبل ذلك كانت القوات الاسترالية والنيوزيلندية قد نزلت فى مصر • وكان تعداد بريطانيا عندئذ صغيرا نسبيا (نحو ٣٥ مليونا ، أى مثل تعداد جاوه تقريبا) لكنها كانت قد حذقت خلال قرون من سيطرتها الاستعمارية فن حمل رعاياها فى المستعمرات على القتال من أجلها •

وقد استطاع الوزراء الثلاثة أن يكسبوا السلطان ـ بوصفه الخليفة ـ الى جانب فكرة الحرب المقدسة ـ الجهاد • ولعل أنور باشا كان يحلم بانشاء امبراطورية تركية شاملـــة • ففى خارج تركيا كان المسلمون لا يعبأون بالخليفة الا قليلا ـ وتلك حقيقـة سهلت على كمال أتاتورك فيما بعد أن يلغى الخلافة • وقد أراد ليمان فون ساندرز من الأتراك أن يهاجموا أوكرانيا ـ التى كانت ستصبح ، متى تم انتزاعها من روسيا ، موردا احتياطيا للقمح بالنسبة لالمانيا • وهكذا كان يريدها هتلر فى الحرب العالميـة الثانية • وهذه الرغبة السيئة التى لاحت من ألمانيا فى امتـــلاك أوكرانيا الحصينة انما هى من الأمثلة الكلاسيكية على أثر العوامل الجغرافية والاقتصادية فى مجرى التاريخ •• تماما مثل أثر ترامى مساحات روسيا بثلوجها ووحلها ودرجات برودتها الرهيبة فى الشتاء •• ذلك الأثر المر على العمليات العسكرية ، الذى تعلمـــه نابليون فى عام ١٨١٢ ومن بعده الألمان فى كلا الحربين العالميتين •

للأمر انور باشا ساندرز في وجهة نظره - وقرر مهاجمة روسيا عن طريق القوقاز • وفى ديسمبر شن حملة هجومية فى قطاع كارس ، فى الطرف الشمالى الشرقى لما هو الآن تركيا - بين باطوم وجبل أرارات • وكان القوازق الروس قد احتلــوا هذه المنطقة فى عام ١٨٢٩ ، لكنها استعادت تركيتها مرة أخرى بعد حرب القرم • وفى عام ١٨٧٨ أصبحت منطقة روسية نهائيــا • وكانت النتيجة الوحيدة لذلك الهجوم التركى ، أن تعرض الأرمن الذين يعيشون هناك لمذبحة جديدة • ولم يكن الروس بأقل من الأتراك فى اساءة معاملتهم بوحشية فيما سلف قبل ذلك من أيام• وعندما تحقق الاتراك من أنه ليس من الممكن غزو روسيـا عبر القوقاز ، سعوا ، كما كان متوقعا فى لندن ، الى ضرب بريطانيا بشن هجوم على قناة السويس • وكانت سكة الحديد الممتدة من آسيا الصغرى الى الحجاز - والتى مدت بأموال الأتراك المؤمنين - تهيىء عندئذ خدمة ما كان لهؤلاءان يتوقعوها • ذلك أن سكة حديد الحجاز كانت لا تبعد الا بمرمى حجر عن السويس - عبر صحراء سيناء • الا أن الدفاع عن قناة السويس كان عنيدا (٣ و ٤ فبراير ١٩١٥) وفشلت القوات التركية فى الاستيلاء على القناة •

فى ذلك الوقت كانت الأمور قد وصلت الى حالة من الركود فى الجبهة الغربية • لذلك شرع البريطانيون الهجوم فى البحر الأبيض المتوسط • وكان ونستون تشرشل هو الذى سعى لاقرار خطة النزول فى غاليبولى - شبه الجزيرة الواقع فى الجانب الشمالى الغربى من الدردنيل ، الذى يربط البحر الاسود بالبحر الأبيض المتوسط • وكانت الخطة تقتضى التقدم من غاليبولى والاستيلاء على

القسطنطينية - واخراج تركيا من الحرب وفتح المضايق للملاحة من روسيا واليها ٠

وكان تشرشل (ولد عام ١٨٧٤) قد خدم تحت قيادة كتشنر في الخرطوم - كما كان مراسلا حربيا في حرب البوير ٠ وكان يتولى حينذاك منصب وزير البحرية ٠ الاأنه لم يقدر الأتراك حق قدرهم ٠ ذلك أن الهجوم البريطاني لم يكن مجرد خطر يتهـــدد الامبراطورية التركية ، بل كان بمثابة جرح عميق للشعور القومي المستيقظ ٠ وحاربت القوات التركية كالاسود عندماسعت القوات البريطانية والاسترالية الاسيوية والفرنسية الى التوغل في الداخل ٠ وأبرق القائد العام البريطاني ، أيان هاملتـــون ، الذي كان قد شاهد هزيمة الروس عند نهر يالو وهو ضيف على اليــــابانيين - الى بلاده بأن النصر سيكون حليفــه بين لحظة وأخرى ٠ لكـــن لم تلبث خطة النزول أن فشلت بعد لحظة ٠ وكان ضابط يدعى مصطفى كمال هو الذي حمل انباءها الى ليمان فون ساندرز ٠ كان ذلك يوما اسود للحلفاء ، ويوما متألقا للأتراك ٠ وبالرغم من ذلك لم يحل انتصار الأتراك في غاليبولي دون ســـقوط الامبراطورية التركية ٠ وفي خلال المعركة أصابت رصاصة ساعة كمال التي كان يضعها في جيبه ٠ فأنقذت الساعة حياته وأبقته ليصبح كمــــال أتاتورك ، مؤسس تركيا الحديثة ٠

بعثت بريطانيا بمزيد من القوات دون جدوى ٠ ولحقت الهزيمة أخيرا بالبريطانيين في « سارى بير » خــــلال اغسطس بعد أن تدهورت روحهم المعنوية نتيجة المقاومة الضارية التي لم يكونوا يتوقعونها ، وبعد أن أنهكهم الحر ونقص المياه ٠ وما تلا ذلك من أحداث لم يكن الا خاتمة ، استطالت لان أولئك المسئولين عن

تلك الأحداث رفضوا أن يتخلوا عن أوهامهم . وجلا المغيرون عن شبه الجزيرة فى ديسمبر • وأدت الخطة الى هزيمة دموية • وكان من نتيجة ذلك - وهى نتيجة هامة بالنسبة لتاريخ العـــالم ، أن روسيا لم يعد لها أمل فى تلقى التموين من حليفاتها • ويجب أن نتذكر أن طريقى المرور الرئيسيين اللذين استخدما فى الحرب العالمية الثانية لم يكونا متاحين فى الحرب العالمية الأولى • فمن الناحية النظرية كان الطريق عبر ايران وبحر قزوين مفتوحا ،لكن ايران لم تكن لديها سكك حديدية • وكان الطريق عبر مورمانسك فى شمال روسيا قد تزايد خطره نتيجة نشاط الغواصات الألمانية • كانت غاليبولى سببا من أسباب انهيار روسيا • وقد ذهبت شائعات السوء الى أن الثورة البلشفية كانت نتيجة الهزيمة العسكرية التى لحقت بقوات القيصر •

وفى الوقت نفسه كانت الحرب قد انتشرت أيضا الى بلاد ما بين النهرين - عراق اليوم • فقد نزلت فيها القوات البريطانية ، من أجل حماية حقول البترول الايرانية ، واحتلت البصرة (نوفمبر ١٩١٤) • وبدأ ذلك كعملية محلية ثم تطورت فى الصيف التالى الى حملة حربية شاملة للاستيلاء على بغداد • وفى يونيو ١٩١٥ هزم الأتراك فى « كت العمارة » ، التى تقع على مسيرة ٩٠ ميلا جنوبى بغداد • وبالرغم من أن الحامية البريطانية فى « كت » ، وقوامها ١٠ آلاف رجـــل ، اضطرت فى ابريل عام ١٩١٦ الى الاستسلام للاتراك ، فان بغداد ظلت رغم ذلك فى خطر •واتضح عندئذ الخطأ الذى ارتكبه أبناء تركيا الفتاة بالانضمام الى الألمان • فقد توغلت المانيا فى فرنسا وروسيا ،لكنها استنفدت قوتها وطاقتها فى البقاء هناك • وفى أكتوبر ١٩١٥ دخلت بلغاريا الحرب الى جانب

الدول الوسطى ، الا أن رومانيا كانت مستعدة للانضمام الى الحلفاء •• وفى ديسمبر أعلنت الحرب على المانيا • وفى لندن وباريس وسانت بطرسبورج ، كان الاعتقاد هو أن الوقت قد حان لتقسيم الامبراطورية التركية • وفى ابريل ١٩١٦ تم توقيع معاهدة سرية بمقتضاها تحصل روسيا على القسطنطينية وأرمينيا — على أن تقيم بلاد العرب دولة مستقلة ، وتوضع فلسطين تحت الاشراف الدولى• وتصبح بلاد ما بين النهرين وميناءا حيفا وعكا المطلان على البحر الأبيض المتوسط فى دائرة النفوذ البريطانى ، كما تصبح للفرنسيين دوائر نفوذ فى سوريا وجنوب الأناضول •

أما سائر الحرب فيمكن تناولها بسرعة ،فلم يفلح الهجوم التركى المضاد ضد قناة السويس فى صيف عام ١٩١٦ ولا العمليات التى تلت ذلك فى بلاد ما بين النهرين — حيث استسلمت بغداد فى مارس ١٩١٧ — فى انقاذ امبراطورية السلطان • وعندما قام اللنبى فى أكتوبر عام ١٩١٧ بهجوم مفاجىء على فلسطين من الجنوب ، كان ذلك هو النهاية بالنسبة لتركيا • وفى ٨ ديسمبر دخل اللنبى القدس • ولم يبق للأتراك من سبيل للهرب الا الطريق التى جاءوا بها قبل ذلك بقرون • وفى سبتمبر ١٩١٨ ، عندما أصبحت هزيمة المانيا فى مثل وضوح هزيمة تركيا ، بدأ الهجوم البريطانى الكبير فى « مجيدو » على نحو ١٣ ميلا الى الجنوب الغربى من الناصرة • وهناك تحطمت الخطوط التركية وحل الجيش التركى • وسقطت دمشق فى أول اكتوبر • واستولى مشاة الاسطول الفرنسى على بيروت (٧ اكتوبر) وتم احتلال حمص وحلب ••

وظهرت عواقب ذلك سريعا • ففى منتصف أكتوبر طرد السلطان الجديد ــ والأخير ــ محمد السادس (١٩١٨ ــ ١٩٢٢) ــ كلا من أنور وطلعت وعين وزيرا أول جديدا أبرق بدوره يطلب من الرئيس الأمريكى القوى ان يتدخل لكنه لم يتلق ردا • وربما فكرولسون أن المسألة لا تستحق ارسال رد • وكان تاونزهند ، الذى وقع أسيرا فى كت ، قد أطلق سراحه حينذاك وبدأ يعمل من أجل توقيع هدنة (٣٠ أكتوبر) فى مودروس بجزيرة ليمنوس • وتقع هذه الجزيرة بالقرب من غاليبولى والمضايق التى صارت موضع الأطماع • وكان البريطانيون قد بقوا هناك بعد جلائهم من شبه الجزيرة • واكتملت الهزيمة عندئذ • واضطر الأتراك الى أن يفتحوا الطريق أمام سفن الحلفاء ، اذ أن الحكومتين الفرنسية والبريطانية أرادتا سحق الثورة الروسية عن طريق البحر الاسود • واقتضت المعاهدة اعادة جميع الأسرى •• وتسريح الجيش والبحرية وقطع العلاقات مع الدول الوسطى واتاحةجميع الأراضى التركية ليستخدمها الحلفاء فى أية عمليات أخرى محتملة ضد الدول الوسطى •

وبالنسبة لأنور وطلعت كان الانهيار هو الاشارة للهرب • فذهب أنور شرقا ، وأصبح أميرا فى تركستان الغربية وسقط فى معركة ضد البلاشفة • اما طلعت فقد اغتاله أحد الأرمن فى عام ١٩٢١ ــ ولو كان للجريمة ــ ولو حتى الجريمة السياسية ــ مبرر ــ لكان لهذه الجريمة ما يبررها • ولو كان ثمة رجل واحد يبرز كمضطهد للارمن لكان هذا الرجل هو طلعت •

فى خلال ذلك الوقت ، وفى ١٣ نوفمبر ، القى أحد أساطيل الحلفاء مراسيه تجاه القسطنطينية • وفى ٢٠ أغسطس ١٩٢٠ ،

وقعت معاهدة للصلح فى « سيفر » قرب باريس بين تركيا وبين الحلفاء . لكن كان قد سبق ذلك أحــداث كثيرة فى تركيــا ـ سنتعرض لها عندما نعالج الفتــرة ١٩١٩ ـ ١٩٤١ . أصبحت الامبراطورية التركية العظيمة ـ التى ظلت أربعة قرون ونصف قرن بمثابة قلعة مسلمة تتهدد أوربا فى عقر دارها ، أصبحت حينذاك ممزقة اربا . ونشأ فيها وطن قومى تركى جديد . كانت الامبراطورية القديمة كبيرة ، لكنها كانت قد أضحت ضعيفة بسبب الانقسامات أمــا الجديدة فكانت صغيرة لكن مندمجة ، دولة قوميــة بغير أقليات كبيرة . ومن ثم كان مصيرها الى مستقبل عظيم . وفى عام ١٩١٨ كان يبدو أن شيئا قد ضاع ، وأن تركيا القومية ستخوض معركة يائسة لا أمل يرجى منها . كانت الامبراطورية الاسلامية العظيمة قد انهارت . وكانت المنطقة الاسلامية الوحيدة المستقلة حقا قد احتلها الأوربيون . ضاع الحجاز وبلاد العرب وفلسطين وشرق الاردن وأرض العراق المثمرة وسوريا ومصر بثرواتهما ومكة والمدينة ومزارع القطن وحقول البترول . وفى هذه الأزمة بدت تركيا متروكة تماما تحت رحمة الامبريالية الغربية . وحتى اذا اعترفنا بأن مصر لم تكن جزءا من تركيا منذ عام ١٩١٤ ، فثمة حقيقة تبقى ، وهى أن تركيا قد سلبت ثلثى أراضــيها ونصف تعدادها فى الفترة بين عامى ١٩١٤ و ١٩١٨ . ولم يكن هذا هو كل شىء . فقد اختفت كل المقاطعات الامبراطورية ، وحتى قلب الأناضول لم يترك على حاله بغير مساس . فقد احتل الايطاليون واليونانيون مناطق كبيرة منه فى عام ١٩١٩ .

ومع ذلك ، ففى ظلام ذلك الليل ، ظهر نور الفجر الأبيض . فقد كان توقيع السلطان على معاهدة سيفر المملاة بمثابة الهام آخر

للمكافحين من أجل الحرية بزعامة كمال أتاتورك • كانت حركتهم هي التى أنشأت دولة تركيا القومية ـ دولة لا يقطنها سوى الأتراك • كانت صغيرة تقتصر على قليلة ، معظمها منحدرات جبلية جرداء • لكنها كانت قوية من الناحية الروحية بسبب المثل الأعلى القومي الذى أقيمت على أساسه • وتاريخ العالم يعرف حالات أخرى انعكست فيها المقادير على نحو يثير الدهشة ، لكن القليل منها فقط هو الذى يبلغ فى اثارته للدهشة مبلغ هذا المثل التركى • ان الانجيل يحدثنا أنه لا بد للانسان أن يضحى بروحه من اجل أن يحفظها ويستبقيها • ولقد نهضت تركيا فى تلك السنين دليلا على صواب ذلك المثل •

٣

الدول العربية

بعد أن زالت الامبراطورية التركية من الخريطة ، كان مايسمى بالبلاد العربية لا يزال مجرد صحائف فارغة من الورق .. ماذا كان سيكتب على هذه الصحائف ؟ هل تقع هذه الصحارى الرملية والواحات وحقول البترول ـ مهد الاسلام ـ ضحية للغرب تماما أم هل تنشأ فيها دول قومية .. ان الجواب على هذه الأسئلة له شأن تاريخى عالمى .. اذ لا يمكن أن نخطىء ، بعد ٤٠ عاما من انتهاء الحرب العالمية الأولى ، صوت الجامعة العربية فى «الجوقة الدولية»

لم تتح لنا الفرصة لنورد أسماء الزعماء العرب فى روايتنا عن تركيا خلال الحرب العالمية الاولى .. الا أن هؤلاء الأمراء والملوك يستحقون الذكر على أية حال ؟ ! فانهم هم الذيـــن حالوا دون أن تصبح مناطقهم مستعمرات فرنسية أو بريطانية .. ولقد سمعنا من قبل عن الحسين بن على (١٨٥٣ـ١٩٣١) ، شريف مكة الكبير ، وعبد العزيز بن آل سعود (١٨٨٠ـ١٩٥٣) ملك نجد فى وسط شبه الجزيرة العربية .. ولا يزال علينا أن نذكر أبنــاء الحسين الثلاثة ـ فيصل (١٨٨٣ـ١٩٣٣) وعبد الله (١٨٨٢ـ١٩٥١) وعلى .. وكلهم اشتركوا فى حرب الاستقلال العربية .

وعندما شرعت حكومة القسطنطينية فى اعمالها الحربية يوم ٢٩ اكتوبر ١٩١٤ ، وذلك بهجومها البحرى على موانى روســـيا المطلة

على البحر الاسود ، سعى الحسين من فوره (٣١ اكتوبر) الى الاتصال بكتشنر ، الذى كان فى ذلك الوقت وزيرا للحربية ، ولربما كان كتشنر هو الذى بادر الى هذا الاتصال فى الواقع٠٠ ان الحقيقة فى هذا الصدد ربما تكون باعثة على الاهتمام فى دراسة شاملة للعلاقات الانجليزية العربية ، لكن يكفى لاغراضنا أن نقول الآن ان كلا من الجانبين كان يحتاج الى الآخر ٠٠ وفى نهاية القرن التاسع عشر كانت بريطانيا قد تخلت عن سياستها التقليدية الخاصة برعاية « الرجل المريض على ضفاف البوسفور » واستبدلت بها سياسة السعى لكسب النفوذ فى أراضى العرب على حساب تركيا، وكان تدخلها فى حادث عزيز المصرى فى فبراير ١٩١٤ مثلا طيبا على جهودها من أجل كسب مودة العرب بدل كسب مودة الحكومة المحبة لألمانيا والقائمة فى القسطنطينية ٠٠

وفى لندن لمس المسئولون امكان قيام منطقة دفاعية ضد تركيا بين مصر والخليج الفارسى يتملك العرب منها قسمها الأوسط ٠٠ وكان الحسين من جانبه يعتقد أنه قد يكون فى مقدوره تحرير بلاد العرب من النير التركى بمعونة بريطانيا ٠٠ وكان فيصل لا يثق بالبريطانيين فناهض مشروع التحالف الانجليزى العربى ، وكان عبد الله يؤيد المشروع ، فتردد الأب .

وفى المفاوضات كان العرب يملكون أوراقا قوية ، ذلك أن موكز البريطانيين كان دقيقا على نحو ما بما فيه الكفاية ٠٠ فلو استجاب العرب لنداء السلطان بالمشاركة فى حرب مقدسة لوجدت القوات البريطانية فى أنحاء الشرق الأوسط نفسها فى موقف عسير ، ولما أصبحت قناة السويس وعدن ، والبترول الفارسى فى وضع الأمان ٠٠

حاولت لندن أن تطيل أجل المفاوضات ، لكنهـا أكدت للعرب أنها تضمن لهم الاستقلال اذا قاموا بالثورة .. ولم تكن بريطانيا مخلصة في وعدها ، وكان العرب ، لا سيما الحسين وفيصـل ، يلمسون هذا الخداع .. لكن كلا الجانبين كان يعتقد أن مثل هذه الفرصة المواتية يجب ألا تغفل .. وفى خـلال ذلك الوقت كانت حكومة القسطنطينية قد انتهت الى آرائها الخاصة .. وعندما علم الحسين بالخطط التى وضعت لاغتياله ، زال تردده ..

وفى مارس ١٩١٥ بعث بفيصل الى دمشق ، وزعم انه أوفده الى القسطنطينية .. وكانت دمشق مقر منظمة غير مشروعة للشباب العربى تدعى (العرب الفتاة) ، انشئت فى باريس عام ١٩١١ .. وهناك اتخذ فيصل فى البداية مسلكا مواليا للاتراك لخـوفه من أن يكون نفوذ البريطانيين بالغا .. لكن تم الاتفاق بعد ذلك على اساس ألا يثق العرب بالبريطانيين ولا بالأتراك ، بل أن يحاولوا استغلال هذه الفرصة الفريدة بأن يصبحوا حلفاء مؤقتين لبريطانيا .. وقد صيغ هذا كله فيما عرف ببروتوكول دمشق (صـيف ١٩١٥) ، الذى كانت نقاطه الرئيسية التعاون مع بريطانيا والثورة على تركيا بشرط أن تصبح المنطقة العربية كلها دولة مستقلة ، مع الغـاء الامتيازات الأجنبية بالطبع .. وكانت تركيا فى بداية الحرب (٧ سبتمبر ١٩١٤) قد أعلنت أن هذه الامتيازات لم تعد قانونية .. وفى يناير ١٩١٦ ، أى قبل اضطرار الحلفاء الى الجلاء عن غاليبولى ببضعة أسابيع ، قبل البريطانيون شروط الحسين ، أو عـلى الأصح تظاهروا بقبولها .. ولم يعد هناك الا بغـداد والبصـرة ودائرة النفوذ الفرنسى فى سوريا ـ بقيت غير معروفة أو محدودة .

لكن حسين وفيصل ومنظمة الفتاة لم يكونوا هم العرب وحدهم

ففى داخل شبه الجزيرة كان هناك ابن سعود القوى فى نجد ٠٠ ولما كانت الحكومة البريطانية تحب دائما أن تضع فى النار أكثر من قضيب من الحديد ٠٠ فقد جعلت لها عملاء كثيرين فى نجد مثلما كان لها عملاء كثيرون مع الحسين فى الحجاز ٠٠ وكان الفرق الوحيد أن عملاء الحجاز جاءوا من لندن ، أما عملاء نجد فمن دلهى، واذا كان هذا فرقا أو لم يكن ، فتلك مسألة ترتهن بما يناسب السجل البريطانى ٠٠ لكن كان ثمة فرق حقيقى هذه المرة ٠٠ فقد وقعت الحكومة الهندية (البريطانية) وابن سعود اتفاقا فى ديسمبر ١٩١٥ - تم التصديق عليه فى يوليو ١٩١٦ - تضمن الاعتراف بجميع المناطق العربية على الخليج ملكا مستقلا لابن سعود وكان هذا امتياز لا يمكن التوفيق بينه كما هو واضح وبين الوعد الذى ساقه البريطانيون لحسين من انه سيحكم كل الأراضى العربية ٠٠ لكن الحكومة البريطانية تغافلت عن ذلك ، كان البرق والبريد لم يخترعا من قبل - وأعلنت أنه ليس لديها علم بالمرة بما تفعله سلطاتها فى نيودلهى ٠

وبدأ الحسين ، الذى لم يكن يدرك هذه المخاتلة ، الثورة العربية فى الحجاز فى ٥ يونيو ١٩١٦ ، فعزلت الحامية التركية فى المدينة ، وأعلن استقلال الحجاز ٠٠ واستسلمت حامية مكة فى غضون شهر ٠٠ وفى منتصف ديسمبر اعترفت بريطانيا بالحسين ملكا على الحجاز ٠٠ وكان الجيش البريطانى فى ذلك الوقت قد أقام خطا حديديا وخط أنابيب عبر صحراء سيناء، وبدأ اللنبى هجومه الذى انتهى فى شتاء ١٩١٨ بتحطيم الجيش التركى ٠٠ وفى هذه الحملة لعب العرب دورا هاما وأصبح الجهاد حقيقة - لكنه لم يكن الجهاد الذى كان يتوقعه السلطان ٠

وكان السبب المباشر للثورة الأحداث التى وقعت فى سوريا ، حيث سعى القائد التركى العام ، جمال ، السىء السمعة ، الى تصفية الحركة القومية العربية بوسائل بربرية صرف .. فكانت أحكام الاعدام والابعاد والنفى بالجملة للاهالى العرب أحداثا مالوفة منتظمة .. ومات ٣٠٠ الف سورى على الأقل فى الفترة بين ١٩١٥ و١٩١٨ من الارهاب أو من الجوع .. وعندما نتذكر أن المواصلات بين تركيا والجنوب كانت تمر عبر سوريا ، فان هـــذه الوحشية تصبح مفهومة على نحو ما ، ذلك أن حدوث ثورة عامة فى سوريا كان من شأنه أن يؤدى الى قطع أهم خط لتموين الجيش التركى .. كذلك كان الحال فى فلسطين .. هنا كان مهاجرون يهود ، كما كان ثمة عرب ، وكان من شأن هذا أن يحد من حرية الحركة عند

وكان من آثار الحكم التركى ان فر الاف من اليهـــود الى مصر ، حيث شكلوا فى فرق يهودية ، واشترك كثيرون منهم فى حملة غاليبولى وفى هجوم اللنبى .. وعندما حررت فلسطين تبين أن عدد السكان اليهود قد تناقص من ٩٠ الفا فى عام ١٩١٤ الى نحو ٥٥ ألفا فى شتاء عام ١٩١٨ ..

ومن خلال العمليات الانجليزية العربية بين ثورة الحجازوسقوط دمشق لعب الكولونيل الغامض لورنس ـ الذى عرف فيما بعـــد باسم لورنس العرب ـ دورا له أهميته .. كان الرجل انجليزيالكنه كان يناصر العرب الى حد ما .. وكان يتحدث العربية ويقدرثقافتها .. وكرس جهده تماما للمسألة العربية .. وكان لورنس (١٨٨٨ ـ ١٩٣٥) باحثا ومستكشفا وعميلا سياسيا ومؤلفا وجنديا، ولكنه كان أصلا منقبا عن الآثار .. وقد قا فى هذا الصدد بعمـــل يبعث على الاهتمام فى مصر .. وفى صيف عام ١٩١٧ كان الرئيس غير

الرسمى لأركان حرب جيش العصابات التابع لفيصل وحسين ..
وفى يوليو هاجم العقبة التى تقع على البحر الاحمر فى جنـــوب صحراء النقب .. وكلن ـ أكثر من اللنبى ـ صاحب العبقـرية العسكرية لهذا الهجوم .. وكان لا يتجاوز الثلاثين فى عـــام ١٩١٨ .

لكن الوفاق الانجليزى العربى تحطم عندما نشر البلاشفـــة المعاهدات السرية التى ظهر منها كيف خان البريطانيـون الحسين وابن الا سعود .. ولما خابت آمال لورنس على هذا النحو فى قيام الوحدة العربية الشاملة بسبب مسلك الحكومة البريطانية ،انسحب وأثر حتى أن يغير اسمه .. وفى عامى ١٩٢٢ و١٩٢٣ عمل جنديا عاديا باسم روسى ، ثم اطلق على نفسه بعدذلك اسم شو ..وعندما أصبحت تجاربه المريرة وطموحه وخيبة أمله شيئا فى ذمة التاريخ ـ كتب عن هذا كله فى مؤلفه المشهور « أعمدة الحكمـة السبعة » (١٩٢٦) ـ وبعد ذلك بعام نشر مختصرا للكتاب بعنوان (ثورة فى الصحراء) .. وفى عام ١٩٣٥ قتل لورنس فى حادث سيارة .. وكانت شخصيته الرومانتيكية قد تركت طابعا عميقا فى بريطانيا، والسياسة البريطانية عامة لاتنحو كثيرا الى العطف سعود الىعبادة الابطال .. لكن يبدو أن ميولها نحو العرب فيما بعد ـ خـــلال النزاع العربى اليهودى ـ كان مردها الى نفوذ لورنس .. ويبدو ان لورنس الفتى كان ســــاذجا بعض الشىء ـ بل كان حتى أعمى لا يبصر الامور .. فقد أدرك الحسين قبل أن يدرك لورنس ذلك بوقت طويل ـ أن البريطانيين يلعبون لعبة مزدوجة ـ ومن ثم لم يثق فيهم ـ فكان محقا فى ذلك ـ طوال الحرب .. وفى ١٤ يوليو ١٩١٥ أرسل الحسين خطابا رسميا الى مكماهون ، الذى كان فى

ذلك الوقت مندوبا ساميا لبريطانيا فى مصر والسودان •• وفى هذا الخطاب بسط الحسين بروتوكول دمشق أساسا لمزيد من المفاوضات •• ثم تلقى ـ بصفة غير رسمية ـ ردا غامضا بعض الشىء لم يتضمن أية اشارة الى الفقرة الأساسية فى خطابه ـ وهى منح الحرية للعرب جنوبى خط عرض ٣٧ •• فبعث برسالة أخرى زاد فيها موقفه وضوحا •• ومن ثم تلقى فى ٢٤ اكتوبر ١٩١٥ ردا أقل غموضا ، سلم فيه البريطانيون فى المدى البعيد ـ على الأقل بمجرد الكلمات ـ ولم يحتفظوا الى حد ما الابغرب سوريا لفرنسا •• وكان هذا الخطاب الثانى هو الذى جعل العرب ينحازون الى جانب الحلفاء •• ونستطيع أن نطلق عليه بحق أهم وثيقة للقومية العربية •

وتاريخ ما وقع بعد ذلك خلال الحرب وما بعدها هو من أقبح الروايات فى التاريخ الدبلوماسى للغرب •• وان المرء ليود لمجرد الخجل أن يتجاهله لو لم يكن مثلا بالغ الدلالة على وسائل الامبريالية الغربية •• وليس معنى هذا أن العرب كانوا جميعا ملائكة •• فالحسين مثلا ، تسلطت عليه مطامعه الى حد أنه عمل على تتويج نفسه فى اكتوبر ١٩١٦ « ملكا على جميع العرب » ـ كان ابن سعود لم يكن له وجود •• وكان الحسين ملكا فقط على الحجاز •• وحتى هذا اللقب اضطر الى التخلى عنه فى مايو عام ١٩٢٤ •• أما فيصل فظل لفترة قصيرة ملكا على سوريا « ١٩٢٠ » كما سنرى فيما بعد ثم اضطر الى الهرب ، لأن الفرنسيين والبريطانيين كانت لديهم مشروعات وخطط أخرى ، لكنه أصبح فى العالم التالى ملكا على العراق (١٩٢١ـ١٩٢٣) •• أما عبد الله فستراه فيما بعد أميرا على شرق الاردن ـ الدولة التى أصبحت الآن المملكة الاردنية ـ ثم

مليكا عليها ٠٠ وقد استمر حكمه من سنة ١٩٢١ الى اغتياله في ١٩٥١ ٠٠ اما أمال على فلم تتحقق ٠٠ ففى شتاء ١٩٢٤خلف والده الحسين ٠ الذى كان قد طرد من الحجاز بسبب طغيان حكمه ، لكن ابن سعود غزا الحجاز عندئذ ٠٠ وبذلك انتهى حلم الحسين نهائيا ووحدة ابن سعود تحت حكمه كل شبه الجزيرة العربية خلاالمناطق الساحلية البريطانية المطلة على بر العرب ٠٠ وأصبحت شـبه الجزيرة تسمى العربية السعودية فى عام ١٩٣٢.

لكن ٠٠ لنعد الآن الى المؤامرات الأوروبية ٠٠ لنجـد أن المعاهدة السرية التى عقدت فى ابريل عام ١٩١٦ بين بريطانيـا وفرنسا وروسيا قد صيغت تفاصيلها فى اتفاقية سايكس ـ بيكو التى عقدت فى ٩ مايو من نفس العام ٠٠ وكان سايكس دبلوماسيا بريطانيا وبيكو دبلوماسيا فرنسيا ، فوضعا تفاصيل (صفقـة اللصوص) هذه ، ولسنا فى حاجة الى أن نصف ما خص روسـيا فى ذلك المشروع ، ذلك ان الحكام الجدد تخلوا بعد ثورة ١٩١٧ عن مطالبهـم فى تلك المناطق ٠ أما فرنسـا فتحصل بمقتضى هذا المشروع عـلى الجزء الأكبر من سوريا وكذلـك عـلى جنـوب الأناضول ، اى ما هو اليوم جنوب تركيا وبترول منطقة الموصل ٠ أما بريطانيا فتحصل على جنوب سوريا ــ أى فلسطين ــ وكذلك العراق ٠٠ وسائر أرض العرب تصـبح بمقتضى المشروع حرة اسما ــ لكنها فعلا تؤلف اتحادا يقوم تحت حكم استعمارى خفى٠

وقد نجحت هذه الخطط فى البداية عـلى نحو ما حقا لقد استطاع مصطفى كمال ان يطرد الفرنسيين من تركيا كما ان بترول الموصل حملتـه سفن بريطانية لا فرنسية ٠٠ الا ان العـراق

وسوريا وفلسطين كانت أبعد من أن تكون دولا حرة .. لكن حدثت تغيرات فيما بين الحربين كان من شانها ان جعلت التدخل الأوروبى اقل بصفة عامة .. ومع ذلك ، ومهما كان المعتقد عن الدبلوماسية الاوربية ، فليس من شك أن المشروعات التي وضعت لأراضى العرب لم تكن اكثر من مساومة او صفقة دنيئة تتعارض مباشرة مع الوعود التى اعطيت للحسين ولابن سعود .. وكان من المفهوم طبعا أن تبقى اتفاقية سايكس - بيكو سرا ، وقد ظلت كذلك الى ديسمبر عام ١٩١٧ عندما عثر البلاشفة على نسخة منها فى أرشيف وزارة الخارجية الروسية فسارعوا بنشرها .. وعندما علم الحسين بأمرها تردد ثانية .. وطلب من بريطانيا ايضاحا لذلك ، فتلقى الرد المراوغ المعتاد .. وكان الرد وديا مبالغا فيه على نحو ما كانت وزارة الخارجية البريطانية تعتقده ضروريا ، فقد كانت قد نشرت فى ذلك الوقت وعد بلفور الصادر فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ ، وفيه تلوح أمام اعين الصهاينة بأمل انشاء وطن يهودى فى فلسطين .. وكان هذا صدمة أخرى للعرب فى كل مكان ، لا تزال آثارها محسوسة الى اليوم .. لكن اليهود لم يرضوا ايضا - اذ انهم كانوا قد تلقوا وعدا بأن يكون لهم موطنهم الخاص ، وكان من الواضح عندئذ أن «الملاك» سيعيشون فى لندن وأن المصنع سيكون فى القدس وان الموطن نفسه قد أجر بالفعل الى العرب .

كان هذا أمرا سيئا ، لكن ما اعقبه كان اسوأ .. ففى ربيع عام ١٩١٨ طالب سبعة من الزعماء العرب ذوى النفوذ فى القاهرة بأن تعلن بريطانيا من حيث المبدأ سياستها فى الشرق الأدنى .. ومرة أخرى اقدم بريطانيون على خداعهم .. فردوا بأن من الطبيعى أن تحافظ بريطانيا على كلمتها وان من الطبيعى ان تقوم

سياستها على مبدأ حق الشعوب فى تقرير المصير ـ تلك الصيغة السحرية التى وضعها وودرو ويلسون ، والتى نفذ الفرنسيون والبريطانيون تحت ستارها كثيرا من دسائسهم ومؤامراتهم ٠٠وكان من نتيجة ذلك أن حارب رجال العصابات العربية بنفس الضراوة التى حاربوا بها من قبل ٠

وفى نوفمبر ١٩١٨ تم تطبيق نفس الأساليب بعد سلسلة من الحوادث فى سوريا والعراق ٠٠ فكررت بريطانيا أن كل شيء سيتحقق مثلما وعدت ٠٠ ووافق الفرنسيون على ذلك بالنسبة لما وعدوا ٠٠ لقد أصبح هذا كله الآن فى ذمة التاريخ ٠٠ ولم يكن نقض الاوروبيين لتعهداتهم ليمنع انتشار الاستقلال ، فالخداع سلاح الضعيف ، والتاريخ العالمى ينتقم دائما على مايبدو من أولئك الذين يكذبون على أمل تغييره ٠٠ وربما يكون هذا هو بعض مفهوم ما يوصف بأنه (عدالة التاريخ) ٠

وعندما انهارت الامبراطورية التركية المتعفنة فى عام ١٩١٨ كانت الدول العربية قد شرعت تسلك طريق الاستقلال ٠٠ ولم يعد ثمة سبيل للارتداد بعد الضعف الذى طرأ على أوروبا فى الحرب العالمية الثانية ٠

٤

الامبراطورية الروسية

لقد ناقشنا بعض العوامل التى أثرت فى نمو حركة الاستقلال فى آسيا .. لكن الحدث الوحيد الذى ربما كان أكثر أهمية من أى عامل من تلك العوامل كان هو الثورة الروسية ـ التى حدثت فى نوفمبر ١٩١٧ ـ والى حد أقل ثورتا مارس ١٨١٧ و١٩٠٥ واذا كان من العسير فى البداية أن نميز أثر هذه الثورات على آسيا التى كانت تغلى بالثورة فى ذلك الوقت ـ فاننا نستطيع اليوم أن نرى ـ بعد أن جعل ماوتسى تونج من الصين ثانى أكبر دولة شيوعية فى العالم ـ ان تاريخ آسيا الحديثة لا معنى له بغير تاريخ الثورة الروسية .. أليس الحال هو أن ثلاثة أرباع آسيا و٤٥ فى المائة من الاسيويين تحكمهم الآن افكار كان بدء تصورها فى لينينجراد وموسكو ؟

لقد أدت أربعة أحداث الى سقوط الامبراطورية الروسية ـ امبراطورية القياصرة وكبار الملاك الذين قمعوا عشرات من الشعوب فى أوروبا وآسيا .. فقد كان هناك اولا هزيمة روسيا فى الحرب الروسية اليابانية .. ومن آثارها المباشرة ثورة ١٩٠٥ وثورة ١٩١٧ .. وليس ثمة امبراطورية ، أو بناء بشرى ، يسقط من تلقاء نفسه فحسب ، وانما يمكن أن تضعف الحكومة الى حد كبير بسبب فساد الطبقات الحاكمة وعجزها اللذين يظهران فى بؤس رعاياها وسخطهم .. لكن اسقاط مثل هذه الحكومة يتطلب

اما هجوما من الخارج ٠٠ واما قيام طبقة ثورية فى الداخل تجعل هدفها عن وعى تقويض النظام القائم واسقاطه ٠ ٠وقد لمسنا كلا الصدمتين ــ الصدمة من الخارج والصدمة من الداخل فى تركيا٠٠. ثورة ابناء تركيا الفتاة فى ١٩٠٨ ، وهجوم البريطانيين والغرب فى الحرب العالمية الاولى ٠٠ ولم يكن النهج الذى حدث فى روسيا مختلفا ٠٠ فقد حدثت الصدمتان فى وقت واحد ٠٠ فى عامى ١٩٠٤،١٩٠٥ معا وفى عام ١٩١٧

ان ما يسمى اليوم باتحاد الجمهوريات السوفيتيية الاشتراكية ٠٠ والذى يعرف عادة بالاتحاد السوفييتى أو ، بدرجة أقل من الدقة ، بروسيا ٠٠ تبلغ مساحته ما يربو قليلا على ٨ ملايين و٧٠٨ آلاف ميل مربع ، أى أنه يماثل فى حجمه نصف حجم آسيا وثلاثة أمثال حجم الولايات المتحدة ٠٠ ويحتوى هذا الاتحاد داخل حدوده على سبع جميع الأراضى المزروعة فى العالم ، و سدس هذه الأراضى اذا ما استبعدنا جرينلاند والمنطقة القطبية الجنوبية ، ويبلغ تعداد الاتحاد نحو ٢٠٠ مليون نسمة ٠٠ وحدوده تتاخم النرويج وفنلندا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا وتركيا وايران وأفغانستان والصين ومنغوليا وكوريا ٠ وتفصله عن اليابان وأمريكا مضايق ضيقة ــ مضيق بيرنج يبلغ عرضه نحو ستين ميلا ــ ويفصله عن الهند وباكستان جنوب أراضى بامير الجبلية ، ما يعرف باسم (زائدة أفغانستان الدودية) ، التى يبلغ عرضها فى نقط كثيرة ما يتراوح بين ١٦ الى ٧١ ميلا ٠٠ وتمتد أراضى الاتحاد من بحر البلطيق الى المحيط الهادى الشرقى ــ أى من خط طول ٢٠ درجة شرقا الى خط طول ١٧٠ درجة غربا ٠٠ وهو منطقة لا تظهر فيها شمس الصيف ٠٠ وفى الفترة التى يتساوى فيها

الليل والنهار يبزغ الفجر فى مضيق بيرنج بينما يكون الليل قد نزل بأستاره على كالينينجراد فى الغرب • انه منطقة تتصل فيها مسافة ٥٦٠٠ ميل بين مصانع الصلب وحقول القمح فى أوكرانيا ، وبين موانى الصيد وآبار النفط فى سخالين •• وجملة مـوارده الطبيعية وتعداده يتساويان تقريبا مع جملة موارد القارة الامريكية الشمالية وتعدادها الى قناة بناما •

وفى بداية هذا القرن كان للامبراطورية نفس حدود الاتحاد السوفييتى تقريبا •• والفرق الهام الوحيد هو أن فنلندا وبولندا كانتا فى أيام القياصرة جزءا من روسيا •• وكان التعداد بالطبع أقل •• ويفيد احصاء تم فى شتاء عام ١٨٩٧ أن تعداد السكان بلغ ١٢٥ مليونا و٤٦٠ ألف نسمة •• وفى عام ١٩١٤ ، عشـية الحرب العالمية الاولى ، كان التعداد ١٤٢ مليونا و٤٠٠ الف نسمة منهم ١٢ فى المائة من الاسيويين •

كيف نشأت هذه الامبراطورية الاوروبية الاسيوية القـوية أو هذه الامبراطورية الاوراسيوية كما تسمى غالبـا •• ما هى مصادر الوحدة السياسية لجميع هذه الشعوب والبلاد الممتدة من صحارى تركمانستان الى غابات سيبيريا الشمالية المجللة بالثلوج ـ من حقول القمح المثمرة فى الغرب الى براكين شبه جزيرة كامشاتكا •• كيف ومتى أصبحت تلك الأراضى البرية امبراطورية ؟

فى قديم التاريخ كان يعيش فيما نسميه الآن الجزء الأوربى من الاتحاد السوفييتى ـ أى أرض روسيا ـ عدد من الشعوب السلافية التى جاءت أصلا ـ مثل جميع الاوروبيين ـ من آسيا • •وفى أراضى هؤلاء يجب أن نرصد النقط التى ابتدأت منها الدولة الروسية ••

كان من هذه النقط دوقية كييف الكبيرة ــ التى أسسها السكندنافيون كما يروى التراث فى القرن التاسع بعد الميلاد ٠٠ وقد حولت الامبراطورية البيزنطية المملكة الكييفية الى اعتناق المسيحية فى القرن العاشر ــ وكان لهذه المملكة فيما تلا ذلك من قرون ثقافة رفيعة الشأن نسبيا ٠٠ لكن دب فيها التحلل فى خلال القرن الثانى عشر لعدة أسباب مختلفة ، مثل تغير طرق التجارة وغزوات قبائل الرعاة الاسيويين ، ثم تراجعت سياسيا واقتصاديا الى المناطق الواقعة فى شمال أراضى ما بين النهرين الروسية فى الأدغال الكثيفة لأعالى الفولجا •

وفى القرن الثالث عشر غزا التتار المنغوليون روسيا وأحرقوا كييف فى عام ١٢٤٠ حتى سووها بالأرض ٠٠ وظلت روسيا قرنين من الزمان جزءا م نالامبراطورية المنغولية التى اتسعت اطرافها الى حد يثير الدهش ــ بين بحر الصين والبحر الابيض المتوسط وبالرغم من ضغط الغزاة وقمعهم ، نمت دوقية موسكو الكبيرة فى ظل السيطرة التتارية ٠٠ وقد جاء ذكر مدينة موسكو لأول مرة فى السجلات التاريخية لعام ١١٤٧ ٠٠ وكانت مساحة الدوقية فى عام ١٣٠٠ لا تتجاوز ٢٠٠ ميل مربع على آكثر تقدير ، لكنها ضمت اليها بالتدريج الأحياء المحيطة ٠٠ وفى عا م١٤١٨ استطاع ايفان الثالث أن يرفض دفع الجزية للمنغوليين الذين كانوا قد ضعفوا حينذاك وشرعوا يتراجعون ٠٠ ثم ولدت روسيا ــ وزادت أرضها بسرعة فى القرون التالية ٠٠

وكان ثمة نحو مليونى شخص يعيشون فى القرن الخامس عشر فى أراضى روسيا القليلة السكان فى ذلك العهد ــ غربى جبال الاورال وشمالى القوقاز ٠٠ ثم توسعت المملكة فى ثلاث

اتجاهات : شرقا وجنوبا وغربا .. وبدأت التوسعات الثلاثة جميعا فى القرن السادس عشر ، ففى الجنوب أمكن الوصول الى حدود ايران فى عام ١٨٧٠ .. أما التوسع شرقا - الى أن أوقفته اليابان عند نهر اليالو فى عام ١٩٠٤ - فسنعالجه تفصيلا فيما بعد .. وكانت الحدود الغربية بالغة الميوعة .. واتخذ التوسع هنا صبغة الدفاع ضد سائر وربا .. اذ كان التهديد الرئيسى للروس هنا من جانب طبقات الفرسان الألمان الذين احتلوا فى القرن الثانى عشر ما يعرف ببلاد البلطيق ء لى السواحل الجنوبية لبحر البلطيق ، ثم كان التهديد أيضا من جانب مملكة بولندا العظمى التى امتدت خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر بين البلطيق والبحر الاسود ووصلت حدودها - على نحو ينذر بالخطر - الى قرب موسكو .. ثم كان التهديد أخيرا من جانب السويديين الذين كانوا يمتلكون فى النصف الثانى من القرن السابع عشر جميع سواحل البلطيق .. وكان بطرس الاكبر اول من وصل الى بحر البلطيق فتح نافذة على الغرب ..

وفى عام ١٧٠٣ أسست فى مستنقعات نيفا العاصمة الجديدة = والميناء - بيتسبرج ، وبعد ذلك بقليل هزم السويديون هزيمة نهائية .. وفى نهاية القرن الثامن عشر كانت الحدود هى على التقريب الحدود القائمة اليوم بين بولندا وروسيا .. وفى بواكير صيف عام ١٨١٢ غزا روسيا جيش نابليون الكبير - وقوامه ٤٥٠ الف رجل .. وفى بورودينو - على نهر موسكوفا - اخترق الامبراطور خطوط الروس بقيادة كوتوسوف .. وفى منتصف اكتوبر خشى الجيش الفرنسى المنهوك - الذى كان قد نقص قوامه الى ١٠٠ الف رجل .. غائلة البرد فقرر الجلاء عن موسكو - التى

كان الروس قد هجروها وأشعلوا فيها النيران .. وعندما ظهر نابليون فجأة فى باريس فى ليلة ١٨ــ١٩ ديسمبر كان قدعرف ان ١٥ ألفا من رجاله فقط قد عادوا ـ نصف مجمدين من البرد ـ الى أوربا عبر قناطر يبريسينا المترنحة .. كانت بولندا قد اضحت عندئذ أرضا روسية .. وسبقتها الى ذلك فنلندا بقليل ..

فى خلال قرون قلائل ارتقت روسيا من دوقيـــة ليست بذى شأن الى أكبر مملكة فى العالم .. كان ذلك نموا لم يسبق له مثيل .. لكن التطور فى داخل البلاد فشل فى أكثر من حال فى محاذاة ذلك النمو .. وعندما تولى بطـرس الأكبر (١٦٨٢ــ١٧٤٥) عرش روسيا كانت البلاد تنتمى الى القرون الوسطى .. فاذا كان هو من جانب قد حاول أن يجعل بلاده قطعة من أوربا ـ وهى مهمة أسهمت هولندا فيها بقسط هام فى مجال الملاحة والطباعة ـ فقد حدث فى عهده من جانب آخر أن الفلاحين الذين كانوا فى الأصل أحرارا ارتبطوا نهائيا بالأرض كأرقاء للسادة النبلاء دون أن تكون لهـــم أرض خاصة بهم .. وبقى شكل الحكومة ملكية مطلقة تخفف منها حوادث الاغتيال ، كما لاحظ احد مشاهير الكتاب الفـرنسيين فى القرن الثامن عشر .. واذا كانت كاترين الثانية (١٧٦٢ــ١٧٩٦) قد انتوت وضع دستور ، فان قيام الثورة الفرنسية جعلها تخـفى نواياها .. كذلك ظلت مشروعات تمدين البلاد ـ على عهدالكسندر الأول « ١٨٠١ــ١٨٢٥ » ـ مجرد حـبر على ورق .. وعندما قام الضباط الأحرار بحركة تمرد ـ تلـك التى سمـيت بالثـورة الديسمبرية ـقمع تمردهم فى ساعات قلائل .. ولابد ان تعترف أن الفـلاحين حرروا فى عـام ١٨٦١ ـ لأسبـاب كان من بينها الهزيمة فى القرم ـ وتم تقسيـــم قرابة ٣١٢ مليون فـــدان

من الأراضى التى كان يملكها الملاك الكبار بين قرابة ٥٠ مليونا من أبناء الشعب .. لكن الزراعة فى روسيا ـ بعكس ما حدث فى أوربا الغربية وفى أمريكا الشمالية ـ كانت تنتمى الى القـــرون الوسطى الى حد كبير ـ فى الفترة بين عامى ١٨٨٠٠ و١٩٣٠ ، أى انه لم تكن قد استحدثت فيها الوسائل الميكانيكية وكان العمــل فيها يجرى على نحو مخالف للعلم ..

ولم يستطع الاصلاح الزراعى الذى وضعه ستوليبين فى عـام ١٨٦٠ ـ وسعى فيه الى ادخال الوسائل الراسمالية الحديثة ـ أن يسفر عن تغيير مادى .. ولم يمكن الوفاء برغبة الفـــلاحين فى الحصول على مزيد من الأرض ، وذلك بسبب مقاومة كبار الملاك . وكان ١٨ مليون عائلة للفلاحين تعيش وقت الحرب العالميـة الاولى على نحو ٥٠٠ مليون فدان .. بينما كان لا يزال ثمة ما يربو على ٣٨٨٠ مليون عدان فى ايدى النبلاء ، والأديرة والعائلة الامبراطورية .. وفى عام ١٩٠٥ ـ عهد الثورة الاولى ـ كان ثمـــة ١٠ ملايين ونصف مليون فلاح يتملكون قدرا من الارض ـ ٢٠٠ مليون فدان ـ يماثل نفس القدر الذى يتملكه ٣٠ ألفا من كبـــار الملاك . وفى نوفمبر ١٩١٧ كانت الأغلبيـــة العظمى من الفلاحين مســتعدة للثـــورة ..

ولم يكن مجال الزراعة هو المجال الوحيد الذى تخلفت فيــه روسيا عن الدول الغربية .. وعندما نشبت الحرب فى عام ١٩١٤ كانت روسيا من وجهة النظر الاقتصادية مستعمرة لأوربا الغربية مثلما كانت سيبيريا وتركمانستان مستعمرتين لروسيا ... وكان الأجانب يمولون ويديرون تسعة أعشار المناجم والسكك الحديدية

والمصانع المعدنية الروسية .. وفي عام ١٩١٤ كان ثمة ٣ ملايين عامل يعملون في المناجم والمصانع .. أي نفس العدد القليل الذي كان يعمل في الولايات المتحدة عام ١٨٢٠ .

وكان ربع الامبراطورية الروسية ينتمي ـ وهو جغرافيـــا ينتمي بالفعل ـ لأوربا .. وبالرغم من أن ٩٠ في المائة من السكان كانوا يعيشون وقتئذ في روسيا الأوربية ـ الا أن روسياكان لديها معظم خصائص الدولة الاسيوية ، الدولة الاقطاعية شبهالاستعمارية لديها طبقة بورجوازية تتطلع الى الغرب ، الى فرنسا وبريطانيـــا وألمانيا وتحاول أن ترسي دعائم الأفكار والنظـم الغـربية ... والبرلمان مثلا ـ الامر الذي لم يتحقق لروسيا الا في عام ١٩٠٥ ، ومن الخصائص التي تلفت النظر أن هؤلاء الأحرار أطلقوا عــلى أنفسهم (الزابادنيكيين) ـ أي الغربيين ، ليفرقوا بين أنفسهـــم وبين من يسمون بالسلافوفيليين الذين كانوا يعتقـــدون أن من الضروري الحفاظ على الشعوب السلافية بعـيدا عن التـــأثير الغربي ..

ولولا اليابانيون لكان من المحتمـــل أن يبقى الحكم القيصري الرجعي على نفسه دون أن يتكبد خسارة كبيرة ، الى وقت اختفائه النهائي في عام ١٩١٧ .. لكن اليابان لم تستطع أن تتوافق مع المطامع الروسية في الشرق الاقصى .. فاعلنت الحرب في فبراير عام ١٩٠٤ ، وهي الحرب التي اشتهرت باسم الحرب الروســية اليابانية ، والتي توالت فيها الهزائم على روسيا وكان هذا اذلالا كبيرا لروسيا ، على الأقل لروسيا الرسمية ، الأمر الذي أثار من جانب الاحرار احتجاجاتعنيفة ضد افتقار الحكم الى الكفاية اللازمة تلك الاحتجاجات التي شارك فيها العمال في المدن الكبرى .. حقا

كان من اسباب الهزيمة فى بورت أرثر وموكدن وتسوشيما بعد الشقة بين مسرح الحرب وقلب الامبراطورية •• لكن الفساد كان أيضا سببا آخر على نفس الدرجة من الوضوح •• فمثلا أرسلت الى الجبهة لفائف كبيرة من العلب المليئة بالنشارة بدلا اللحم •• هذا الى أن عجز الطبقة الحاكمة وغطرستها أسهما كذلك فى الكارثة ••

وكان من نتيجة ذلك أن أضحت روسيا كلها تغلى عندما وقع فى ٢٢ يناير ١٩٠٥ حدث جعل الانفعال الثورى يصل الى حرارة الحمى •• ألا وهو حدث (الأحد الدامى) •• فقد زحفت فى صباح ذلك اليوم جمهرة عظيمة من عمال بطرسبرج الى قصر القيصر لتقديم التماس ـ يتزعمهم القس جابون ، الذى قتل فيما بعد عندما تبين أنه جاسوس للبوليس •• وتلقى حرس القوزاق أوامر باطلاق النار •• وتخلف على أرض الشارع المهجور ٧٧٠ قتيلا و٢٤٠ جريحا •• وأذعن القيصر ونشر من جديد مشروعات تمدين روسيا •• لكن ذلك لم ينفعه كثيرا •• فقد انتشرت حركات التمرد فى كل مكان • فى الفترة بين يونيو واغسطس •• قتل الفلاحون ملاك الاراضى واحرقوا قصورهم وقسموا الأرض فيما بينهم •• وقامت حركات عصيان فى الجيش والاسطول ، كان أشهرها عصيان أوديسيا الذى وقع على ظهر الطرادة بوتمكين •• وقد أخرج عنه ايزنشتين فيلما شهيرا فى عام ١٩٢٦ •

وفى اغسطس قام القيصر بتنازل آخر •• فسمح بانشاء (دوما امبراطورى) أى برلمانا •• لكن هذا لم يكن كافيا •• وكان مجرد وقود أضيف الى النار •• وفى نهاية اكتوبر حدث الاضراب العام وأنشىء أول سوفييت ـ مجلس عمال ـ لقيادة الاضراب فى

بطرسبرج ·· وأضحت الامور عندئذ جد خطيرة بالنسبة لنظام الحكم ، وأذيعت من جديد تنازلات أخرى ·· وحصلت روسيا على دستور بمقتضى البيان الذى صدر فى ٣٠ أكتوبر - أى على الأقل واجهة الحكومة النيابة ·· وأصبح ويت - من الأحرار - رئيسا للوزراء ·· وأعرب شطر من الأحرار - أولئك الذين يسمون بالاكتوبريين - عن ارتياحهم ورضاهم ·· لكن التقدميين - الذين الفوا الحزب الديمقراطى الدستورى (حزب الكاديت) كانوا لا يزالون ينتقدون الأوضاع ·· وظل العمال ثوريين ·· وكان يقودهم حزب العمل الديمقراطى الاشتراكى الذى كان البلاشفة يشكلون منه جناحه اليسارى ·· وكلمة البلشفية معناها الأغلبية ·· ويرجع عهد هذه التسمية الى المؤتمر الثانى للديمقراطيين الاشتراكيين فى لندن عام ١٩٠٣ عندما حصل فريق لينين (فلاديمير اليتيش أوليانوف ١٨٧٠ - ٢١ يناير ١٩٢٤) على الأغلبية من المناشفة وهم الأقلية ·

وما كادت الحكومة تستعيد عددا كافيا من الجنود من الشرق الاقصى ، حتى شرعت فى ديسمبر فى اعتقال سوفييت بطرسبورج فاعتقل ٢٠٠ من الاعضاء ، من بينهم رئيسهم تروتسكى «ليو دافيدوفتش برونشتين ١٧٨٩ - ١٩٤٠) ·· ورد لينين على ذلك بأن نظم ثورة للعمال فى موسكو (٢٢ ديسمبر ١٩٠٥ - أول يناير ١٩٠٦) لكن الجيش ظل على ولائه وتم قمع الثورة دمويا بعد قتال ضار فى الشوارع ·· وخلال الشتاء أرسلت بعثات تأديبية الى جميع أنحاء البلاد فسحقت كل ماتبقى من مظاهر المقاومة ·· فى ذلك الوقت كان القيصر قد حصل على قروض كبيرة من بريطانيا وفرنسا يستطيع بمقتضاها أن يواصل الحكم بغير برلمان ، وهكذا

انتصرت الرجعية . واجتمعت ٤ برلمانات .. ولكن هذا لم يعن شيئا .. كانت الحكومة الحقيقيـــة هي القصر وملاك الأراضي والكنيسة . .ولم يكن للعمال والأغلبية العظمى من الفـــلاحين ـ تماما مثلما كان للاقليات في بولندا وفنلـندا وآسيا ـ الا كلمة قليلة في قرار كبير ، كاعلان الحرب على المانيا في اغسطس عام ١٩١٤ .

وفي عام ١٩١٧ اتفق حدوث الهجوم من الخارج مع الهجـوم من الداخل .. وكانت الحملات الهجومية الألمانية قد أتاحت للعدو أن يحتل أجزاء كبيرة من روسيا ، لا سيما بولندا وجزء كبير من مقاطعات البلطيق .. وفي الداخل نشبت المتاعب والاضطرابـات في مارس عام ١٩١٧ في بتروغراد ـ التي كانت تسمى بطرسبورج حتى عام ١٩١٤ .. لكن الثوران العام ـ على نقيض ما حدث في عام ١٩٠٥ ـ كان عندئذ يلقى حماية الجنود ، وأربعة أخماسهم من الفلاحين ، الذين لم يكونوا يريدون الا العودة لممتلكاتهم وماشيتهم .. وتلك هي المشكلة التي تواجه أبدا جيشا من الفلاحين . ورفض الدوما ـ البرلمان ـ أن يقبل حل نفسه وأنشأ في ١٢ مارس حكومة مؤقتة غلب عليها عنصر الاحرار ورأسها الأمير لفوف ، وتولى فيها ا. ف. كيرنسكي (ولد في سنة ١٨٨١) الذي كان الممثل الوحيد للاشتراكيين ، وزارة العدل .. وتنازل نيقولا الثاني (١٨٩٤ ـ ١٩١٧) عن العرش في ١٥ مارس .. ولم تستطع الحكومة المؤقتة التي بدت راديكالية في البداية ، أن تذعن للرغبة الشعبية في انهاء الحرب .. بل على العكس من ذلك ، حاول كيرنسكي ، الذي كان قد أضحى في مايو وزيرا للحربية ، أن يعيد بناء الجبهة الممزقة . وكان هجومه الشهير في الصيف مجرد هزيمـــة كبيرة أخرى ، وبلغت خسائر الروس قرابة المليون ، وكانت هيئة أركان الحرب

الالمانية تدرك حينذاك أهمية الاجهاز على روسيا • ان انهاء الحرب فى روسيا كان معناه توجيه كل القوات الالمانية ضد فرنسا ، ومن ثم أعادت هذه الهيئة الثوريين الذين كانوا يعيشون فى منفاهم بسويسرا ـ لينين وسائر البلاشفة أمثال زينوفييف ولوناخارسكى وراديك ووضعتهم فى قطار مغلق وارسلتهم عبر المانيا الى روسيا فى مايو من الولايات المتحدة وكندا ، وعاد ستالين (جوزيف فيساريونوفيتش وجوجاشفيلى ـ ولد فى جورجيا عام ١٨٧٩ ومات فى موسكو يوم ٥مارس ١٩٥٣) من سيبيريا •• وأضحى الثوران البلشفى عندئذ أشد قوة واكثر وعيا وادراكا لاهدافه ـ لاسيما بعد أن نشر لينين برنامجه ـ منح السلطة كلها لمجالس السوفييت التى كانت بالفعل قائمة فى ذلك الوقت كحكومة ثانية • وطرد حكومة كيرنسكى البرجوازية ، وانهاء الحرب ، وتوزيع الأراضى بين الفلاحين •

وفى يوليو حاول البلاشفة ـ عندما هجم الألمان مرة أخرى ـ القيام بانقلاب فى بتروغراد ، لكن الوقت لم يكن قد تهيأ بعد لذلك •• فاعتقل منهم كثيرون ، من بينهم تروتسكى • وفر لينين الى فنلندا ، حيث مكث ، وهو الزعيم المعترف به للثورة ونبيها ـ فى بيت يقع فى منتصف غابة بجوار احدى بحيرات فنلندا الكثيرة ـ يتحين صابرا فرصته •

وكان كيرنسكى فى ذلك الوقت قد تولى رياسة الوزارة بعد لفوف •• وفى سبتمبر حاول كورنيلوف ـ وهو أول الجنرالات (البيض) الكثيرين ، أى جنرالات الثورة المضادة ، الاستيلاء على الحكم •• لكن ثورة كورنيلوف أمكن سحقها بسرعة ، والفضل فى ذلك لتدخل كتائب عمال بتروغراد •• وكان هذا بمثابة ذخيرة

جديدة لطاحونة البلاشفة الذين كان ينظر اليهم عندئذ على أنهم المدافعون الأشداء الوحيدون عن الثورة .. واعتقد لينين أن الساعة قد حانت .. وفى بواكير ٧ نوفمبر انفجرت الثورة الثالثة .. وكانت هى الثورة الروسية ، ثارت حامية بتروغراد وبحارة كرونشتاد بقيادة البلاشفة - أى الحزب الشيوعى - واحتل الحرس الاحمر العمالى مبانى الحكومة . واقتحم القصر الشتوى واعتقل أعضاء حكومة كيرنسكى .. واعترف المؤتمر الثانى لمجالس السوفييت فى خلال ذلك اليوم بالثورة وسلم السلطة الادارية للحزب الشيوعى .. وتعرف هذه الثورة باسم ثورة اكتوبر ، لأنها وقعت فى ٢٥ اكتوبر بحساب التقويم الروسى القديم . وقد استبدل بتقويم جوليان القديم التقويم الجريجورى فى ١٤ فبراير ١٩١٨ .. وبنفس الطريقة غالبا ما يجد المرء ثورة مارس مسماة بثورة فبراير .

وفى الحكومة التى ألفها لينين كان ستالين قوميسارا للقوميات وكان تروتسكى وزيرا للخارجية .. وكانت أحداث بتروجراد ، التى وقعت فى وقت واحد مع الثورات فى موسكو وغيرها من المدن .. وتوزيع الاراضى من جانب الفلاحين - قرابة ٦ مليون مربع من ملكيات الأراضى قسمت - وكذلك الفرار العام من الجبهة وعودة الجنود . كل ذلك كان بداية عهد جديد ، لا لروسيا فحسب ، بل للعالم أيضا ، على نحو ما .

ويجب الا يثير دهشتنا أن نجد أن الفترة الاولى للثورة الروسية كانت فترة عسيرة على نحو غير عادى بالنسبة للحزب الشيوعى وللشعب الروسى فى مجموعه .. وكانت خطة الثورة بسيطة وهى تحرير روسيا من النظام الاقطاعى بكل مافيه من

مظالم ، لاسيما منه النظام القيصري .. ولنكرر من جديد ان روسيا كانت دولة كبرى فى آسيا لكنها فى الوقت نفســـــه كانت شبه مستعمرة للغرب .. ولما كان البلاشفة اشتراكيين من حيث المبدأ ، فقد أمموا على الفور البنوك والمصانع الكبرى ،وتولوا الاشراف على الاراضى والتجارة الخارجية .. وتم التنصل من الديون الاجنبيـــة التى جلبها نظام الحكم السابق وحكومة كيرنسكى .. وكان معنى هذا بالطبع ان الا يتوقع الحكم الجديد مزيدا من المساعدات من الخارج وليس هذا فحسب ، بل كان معناه ايضا ، عداوة ضارية من جانب رجال البنوك والصناعة فى أوربا الغربية ، الذين كانوا قد تبينوا انهم لم يخسروا مالا فقط ، بل خسروا كذلك ســـوقا وامكانيات ضخمة لاستثمار رؤوس الاموال .. ألم تهدد هذه الثورة ايضــــا الأمن المزعوم للنظام الرأسمالى، وأوهام الطبقة الراسمالية، وتقوض تصورها كله ، وتحطم عالمها أكثر مما فعلت اية ثورة اخرى ؟

لم تستطع بريطانيا وفرنسا وامريكا فى البداية ان تتدخل ، لأنها كانت لا تزال فى حرب مع ألمانيا وتركيا .. وكان الألمان قد تعقبوا الروس فى تراجعهم واحتلوا عندئذ أجزاء أكبر من روسيا ، فسقطت نارفا ، التى تقع على مسيرة أكثر من ٩٠ ميلا من بتروجراد فى ٤ مارس عام ١٩١٨ ، وكان البلاشفة يواجهون عندئذ مسألة ما اذا كان عليهم أن يستمروا فى القتال أم لا .. وقد قال لينين : لا .. لاننا لن نستطيع الحصول على ثمار الثورة الا فى توقـف الحرب .. وانتقلت الحكومة السوفيتية الى موسكو ، التى كانت العاصمة قبل عهد بطرس الأكبر ، وتم توقيع معاهدة بين البلاشفة والألمان فى بريست ليتوفسك ، قرب حدود روسيا وبولنـــدا حاليـــا ..

وبمقتضى هذه المعاهدة تخلت روسيا عما كان يسمى من قبل بولندا الروسية وفنلندا الروسية ، كما تخلت عن أرض الغلال فى أوكرانيا وجميع أقاليم الحدود التى كانت تقطنها أقليات غير روسية ، مثل أقاليم البلطيق وما وراء القوقاز .. وأضحى الألمان عندئذ فى قلب روسيا ، وتلك حالة من حالات التوسع الاستعمارى الصريح .. وأصبحت جميع المدن الكبرى فى أوكرانيا محتلة .. وسقطت سيباستبول فى أيديهم فى مايو – وهى القاعدة البحرية الكبيرة على البحر الاسود ..

وكان ثمة ما هو أسوأ من ذلك .. فقد كانت الثورة المضادة لقوزاق الدون ، بقيادة كورنيلوف فى ديسمبر ١٩١٧ ، ونزول اليابانيين فى فلاديفوستك خلال الشهر نفسه ، بداية فترة رهيبة من الحرب الأهلية والتدخل كادت الحكومة البلشفية خلالها أكثر من مرة أن تتقوض وتنهار .. وكان ثمة قتال عنيف فى جميع أنحاء البلاد .. وواجه الجيش الأحمر ، الذى نظمه تروتسكى اساسا ، فى أوكرانيا والقوقاز جيوش الروس البيض التابعين لكورنيلوف ودينيكين ورانجل ، كما واجه فى سيبيريا الأميرال كولشاك المناهض للثورة ذى السمعة السيئة ، الذى كان يلقب بالوصى .. وفى فبراير اعدم كولشاك بايدى البلشفين فى أركوتسك وتحطمت الثورة المضادة نهائيا فى روسيا عندما أرغم رانجل على اجلاء جيشه الى اسطنبول .

لكن حدث قبل ذلك ، كأنما الحرب الأهلية لم تكن شيئا سيئا بما فيه الكفاية ، أن جاءت جيوش التدخل من جميع الجهات : فرنسية وبريطانية وبولندية وتشيكية وأمريكية ويابانية وألمانية .. ولم يغادر اليابانيون فلاديفوستك الا فى عام ١٩٢٢ .. ولم

يتركوا شمال سخالين الا فى عام ١٩٢٥ .. وفى ٣٠ ديسمبر ١٩٢٢ أعلن رسميا قيام اتحاد الجمهوريات الاشتراكية ، ويشمل أرض روسيا والقطاعات الاسيوية واوكرانيا وروسيا البيضاء وما وراء القوقاز ..

وهاتان الفترتان : الفترة الثورية وفترة الحرب الأهلية والتدخل ، لهما أهمية لا تقدر فى صحوة آسيا ـ والأمر لا يحتاج فى هذا الصدد الا لذكر الصين ـ ولو كان ذلك لمجرد تصفية الأبعديات الكبيرة وتدخل الغرب ، كأنما روسيا لم تكن فى الحق الا مستعمرة لكنها كانت ذات شأن كذلك لأنها كانت نهاية الامبريالية الروسية فى آسيا وأوربا .

ففى أوربا تم الاعتراف ببولندا وفنلندا ودول البلطيق كدول مستقلة ، وكذلك بدرجة من الاستقلال لاقاليم ما وراء القوقاز .. وهى المنطقة التى تقع جنوبى القوقاز .. وبالنسبة لآسيا كان ذلك يعنى انتهاء المطالب القديمة فى تركيا وانسحاب القوات الروسية من شمال ايران ومن قطاعات الحدود فى أفغانستان .. كذلك تم تسليم جميع الحقوق والمزايا فى منشوريا وسائر اجزاء الصين .. وربما يكون مرد هذه السياسة التى اتبعت الى ضرورات ذلك الوقت .. لكن هذه السياسة كانت من حيث المبدأ ومن حيث النتائج سياسة مناهضة للامبريالية ، أدت فى كثير من البلدان الاسيوية الى اعادة تقدير روسيا على نحو لايمكن محوه ابدا محوا تاما .

كذلك تم التخلى عن التراث القيصرى فى قطاعات روسيا الاسيوية .. حقا لم تحصل شعوب تركمانستان وهى المنطقة التى يقطنها المسلمون ، وكذلك سيبيريا على الحرية بمفهوم الاستقلال،

لكن عهد الجهود الغبية التى كانت تبذل (لروسنة) هذه الشعوب ، أى جعلها روسية ، كان قد ولى وانقضى ، وكانت سياسة ستالين فيما يتعلق بالقوميات تعنى الاعتراف بلغة الشعوب المختلفة وثقافاتها وحمايتها •• ولكن تحطمت من جانب اخر الروابط القوية بين الدين والثقافة والمجتمع ، وهى الروابط التى كانت تميز المجتمع الاسلامى •• وبالرغم من ذلك نستطيع ان نقول ،انه أمكن القوميات وبسياسة تصنيع القطاعات الاسيوية على نحو مخطط مخطط ، دعم رفاهية الشعوب وتعزيز تعليمها بطريقة «دائمة» لاسيما اذا نظر المرء الى البلدان المحيطة •• ونحن نقول (دائما بتعقل لان ما يصدق على روسيا يصدق على تلك القطاعات ، كذلك •• ولم يكن الاتحاد السوفييتى يستطيع ، ولم يكن يريد ، ان يقترض من الخارج ، ومن ثم كان من اللازم العثور بالاقتصاد والوفر الشديد، على رأس المال اللازم للمصانع ولأفران الصهر والجامعات والجرارات •• وكان هذا معناه فى البداية (خبزا أقل ، ومنازل أقل ، وخشبا فى المدافىء أقل) •• ولذلك لم تكن الجمهوريات السوفيتية جنات عدن ، وكانت بالقياس الى دول اوربا الغربية ، أقل منها بكثير من حيث كونها حرة •• لكن كلمة « حرة » لها معانى كثيرة : فاذا كانت تعنى بالنسبة للمثقف انه يستطيع ان يبدى رايه بحرية ، فهى تعنى بالنسبة للفلاح الاسيوى زيادة قليلة من الغلال والبن والرعاية الصحية بذل الافتقار الدائم اليها جميعا ، ومن ثم ، كانت الدولة الاشتراكية ، تبدو بكل ما فيها من قصور وصعاب •• كضوء مشع هاد للاغلبية العظمى من الفلاحين والعمال الاسيويين ••



٥

الثورة الاشتراكية

ولكى نتبين بعض جوانب الثورة الروسية فى علاقتها بآسيا يحسن ان نتبع الحديث عنها بحديث آخر عن البلدان الاسيوية الواقعة فى نطاق الاتحاد السوفيتى الآن ، ونتجاوز عن التقسيم الزمنى الذى وضع لهذه الفترة من التاريخ ٠

ان آسيا السوفييتية أو الروسية ، التى تتألف من منطقة تزيد مساحتها عن ستة ملايين من الأميال المربعة ـ أى مايعادل مساحة الولايات المتحدة وكندا معا أو مساحة الهند والصين بمقدار مرة ونصف ـ تشمل ثلاثة أرباع مساحة الاتحاد السوفيتى كله وخمسى مساحة آسيا كلها ٠ ويمكن تقسيمها من وجهتى النظر الحضارية والجغرافية الى ثلاث مناطق : سيبيريا « ويبلغ عدد سكانها ثمانية ملايين نسمة » ، وآسيا الوسطى أو تركستان « وسكانها ١٦ مليونا و٦٠٠ الف نسمة » ، ومنطقة ماوراء القوقاز « وسكانها ١٦ مليون نسمة »

وقد تحولت منطقة سيبيريا الشاسعة التى لم يكن يقطنها عند قيام ثورة ١٩١٧ سوى الروس والأوكرانيين ، باستثناء عدد ضئيل جدا من الاسيويين ، الى جزء من الدولة الاكبر ونعنى بها اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية ، التى تعد روسيا الأوروبية فيها بمثابة القلب

وآسيا الوسطى السوفيتية ، التى عرفت فى القرن التاسع عشر باسم تركستان الغربية ، هى وطن شعوب التتار ـ الترك ، وقد قسمت فى ظل الحكم الشيوعى الى عدد من الجمهوريات

«١» كازاخستان وهى بحق منطقة السهول العشبية وتمتد بين وادى نهر الفولجا وسنكيانج ومنغوليا ، وهى لاتصغر عن الهند كثيرا « اذ يبلغ عدد سكانها حسب تعداد عام ١٩٥٦ حوالى ٨ ملايين و ٥٠٠ ألف نسمة ، منهم ٥٧ فى المائة قوزاق و ٣٥ فى المائة روس وأوكرانيون »

«٢» أزبكستان ، وهى المنطقة التى تجود فيها زراعة القطن فى وادى نهر آمو داريا ، الى الجنوب الشرقى من بحر آرال ، وهى تعادل فى ضخامتها مساحة المانيا أو اليابان « وقد بلغ عدد سكانها حسب تعداد عام ١٩٥٦ حوالى سبعة ملايين وثلاثمائة ألف منهم ٧٥ فى المائة أزبكيون وخمسة فى المائة روس »

«٣» تاجيكستان ، وتقع فى منطقة الهضاب الممتدة على طول حدود الصين وأفغانستان « وعدد سكانها حوالى مليون وثمانمائة الف نسمة ، منهم ٧٨ فى المائة تاجيكيون و ١٨ فى المائة أزبكيون

«٤» كيرخستان ، وتقع بين كازاخستان وتاجيكستان « وعدد سكانها حوالى مليون وتسعمائة الف نسمة منهم ٦٧ فى المائة كيرخيون و ١١ فى المائة ازبكيون و ١٢ فى المائة روس .

«٥» تركمستان ، وهى تضم صحراى معلية وحقول قطن على الحدود الايرانية « وتعداد سكانها حوالى مليون وخمسمائة ألف نسمة ، منهم ٧٢ فى المائة من التركمانيين وعشرة فى المائة ازبكيون وسبعة فى المائة روس »

وتشمل منطقة ماوراء القوقاز التى تقع بين جبال القوقاز وتركيا وايران فى الوقت الحاضر ثلاث جمهوريات سوفييتية هى: جورجيا التى تطل على البحر الأسود « وتعداد سكانها حسب احصاء عام ١٩٥٦ حوالى أربعة ملايين نسمة » وأذربيجان التى تقع وراء مدينة بالو ، المطلة على بحر قزوين « وسكانها حوالى ٣ ملايين وأربعمائة نسمة » وأرمينيا « وسكانها حوالى ٣ ملايين وأربعمائة الف نسمة » وهى تقع على حدود تركيا • وسكان جمهورية ازربيجان هم وحدهم الذين ينتمون حضاريا الى منطقة التتار الترك ، شرقى بحر قزوين • أما جورجيا وأرمينيا فلهم ماض مختلف تماما ، ماض غير اسلامى

وقد بلغ عدد سكان سيبيريا عام ١٩٥٦ حوالى ٢٥ مليون نسمة ،أى ما يعادل مجموع عدد سكان منطقتى أسيا الوسطى السوفيتية وما وراء القوقاز •

وعلى الرغم من أن الحرب العالمية الأولى « ١٩١٤ــ١٩١٨ » والثورة الروسية « نوفمبر ١٩١٧ » تعتبران بمثابة بداية لعصر جديد تماما فى التاريخ الحديث فان العلاقات بين روسيا وآسيا لها تاريخ أطول من ذلك بكثير •

ان الانتصارات العسكرية التى احرزتها قبائل المغول الرحل معروفة تمام المعرفة بقدر ماهى ممقوتة • ففيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر استطاع المغول أن يضموا الى امبراطوريتهم التى تتألف من مساحات شاسعة من سهول الصين وغالبية القطاع الخارجى من آسيا بالاضافة الى جنوبى روسيا وأوربا الشرقية • وظهرت خيولهم الصغيرة ذات الشعر الكثيف التى تحمل الرماة

المهرة أمام ابواب بكين ودلهى وبخارى وسمرقند وبغداد والقسطنطينية وكييف وبودابست • ولم تفلت من الغزو المغولى ـ الى حد ما على الأقل ـ سوى منطقة الغابات الواقعة شمالىالسهول العشبية ، ففى هذه الغابات نشأت دوقية موسكو الكبيرة التى استطاع منها قيصر روسيا الأول ، ايفان الرابع الرهيب أن ينتزع منطقة قازان الواقعة على نهر الفلجا من التتار • وقد تناولنا من قبل توسع الدولة الجديدة نحو الغرب •• والآن يمكننا أن نعطى صورة تقريبية لتوسع هذه الدولة تجاه شرقى أسيا وجنوبها خلال أربعة قرون ،وهى الفترة التى استطاع خلالها القوزاق التتار القادمون من أوكرانيا وشمال القوقاز ان يحتفظوا باستقلالهم فترة طويلة « القرنين السادس عشر والسابع عشر »

وقد أغار تتار القرم على موسكو ونهبوها عام ١٥٧١ ، الا أن استيلاء الروس على قازان واستراخان عام ١٥٥٦ فتح الطريق امامهم الى سيبيريا وفى عام ١٥٨٢ قام يرماك تيموفيفتش ومعه ٨٤٠ آخرون من رجال القوزاق بحملة لحساب البيت التجارى الروسى الذى يملكه آل استروجانوف واستولوا على المدينة الواقعة بين جبال أورال واريتشى • وكانت هذه هى اولى الحملات العديدة التى جردت لغزو غابات شمال اسيا التى ان تكن اقل فى القيمة فهى اكثر أمانا ولم تتعرض مناطق السهول الجنوبية التى تغطيها الاعشاب والاشجار وهى المناطق التى يقطنها التتار الأصليون لمناوشات الروس فى القرنين السادس عشر والسابع عشر • وفى منتصف القرن السابع عشر « ١٦٣٧ » عبر القوزاق وصيادو الحيوانات ذات الفراء والمزارعون سيبيريا ووصلوا المحيط الهادى « كما وصلوابحر بيرنج فىعام١٦٤٨ ،وأوختسك عام١٦٤٥

وآمور السفلى عام ١٦٥١ ، ٭٭ ومن طريف مايذكر ان الروس وصلوا الى المحيط الهادى قبل أن يصلوا الى البحر الاسود أوبحر البلطيق ، حيث اعترض تتار القرم والترك والسويديون طريقهم وسقطت أزوف عام ١٦٩٦ ، وتم تأسيس بطربورج التى تعرف اليوم باسم ليننجراد ، عام ١٧٠٣

وبمقتضى معاهدة نيرشنسك اعترف بطرس الاكبر بسيادة الصين على منطقة أمور وهو أول اتصال دبلوماسى بين روسيا والصين الا أن الروس واصلوا زحفهم نحو الشرق وفى عام ١٦٩٧ وصل المستعمرون الروس الى كمتشاتكا ، ووصلوا جزر كوريل عام ١٧١١ وجزر ألوشيا عام ١٧٨٠ وفى نهاية القرن الثامن عشر دخلوا الاسكا قام رجل يدعى شيليكوف « كولمبى الروسى » بتأسيس أول مستعمرة تجارية منتظمة • وكانت خططه الخاصة بانشاء امبراطورية روسية فى الباسيفيكى - بتوطين المزارعين الروس فى كاليفورنيا وانشاء قاعدة بحرية فى هاواى - تبدو محتملة التحقيق فى ذلك الوقت وفى عام ١٨١٢ قام ايفان كوزكوف بانشاء « فورت روس » فى كاليفورنيا وكانت تلك أيضا مستعمرة زراعية • وفى عام ١٨٢٠ تقريبا بلغت الامبراطورية الروسية قمة توسعها •

وفى عام ١٨٢١ صدر مرسوم استعمارى يقضى باعتبار أرضا روسية ، واعتبار بحر بيرنج داخلا فى الاراضى الروسية وأرسلت البعثات العلمية الى منطقة الباسيفيكى فاكتشفت حوالى اربعمائة من الجزر التى كانت مجهولة حتى ذلك الوقت •واطلقت على هذه الجزر أسماء مثل جزر ليزيانسكى وبورودينو وسوفاروف مما يشهد بالمكاسب التى أحرزها الروس • هذا بينما أثبتت بعثة

انجلز في عام ١٨٢٥ وجود ممر بحـــــرى بين سيبريا وامريكا الشمالية • وكان احد الرحالة الروس هو اول من أعطى وصفا علميا لشعوب البابوا التى تقطن غينيا الجديدة الا أنه فى تلـــك الفترة ، أى فى منتصف القرن التاسع عشر وصل البريطانيـــون القادمون من كندا والامريكيون القادمون من الشرق الى المحيط الهادى • وتم ضم كاليفورنيا الى الولايات المتحدة عام ١٨٤٨ واتجه التوسع الروسى نحو شرقى أسيا ووسطهـا ، وقد ترك الـروس كاليفورنيا عام ١٨٤٤ بمحض ارادتهم وفى عام ١٨٦٧ تركوا كل امريكا الروسية ، بما فى ذلك ألاسكا • ونستطيع ان نفهم الدافع الى ترك هذه المناطق عندما نتذكر أن البريطانيين كانوا يتوغلون داخل أسيا من الجنوب « حرب الافغان الأولى ١٨٣٩ـ١٨٤٢ » كشمير عام ١٨٤٥ ، حرب الأفيون وهونج كونج عام ١٨٤٢ ،الحملة البريطانية الفرنسية على بتروبافلوفسك فى كامتشكاعام١٨٥٤، بينما كانت الامبراطورية التركية تسد الطريق أمام الغزوالروسى فى المنطقة الواقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين •

وفى عام ١٨٤٩ نزل الكابتن نيفلسكوى الروسى عـــلى أرض آمور السفلى وهى منطقة كانت خاضعة للصين رغم أنه لايعيش فيها سوى عدد قليل من الصينين ، وكانت هذه بداية الاستعمار الروسى الحقيقى فى الشرق الاقصى • وفى عام ١٨٥٥ استـــولى نيفلسكوى على جزيرة سخالين التى كان اليابانيون قد استوطنوها بالفعل واصبحت هذه الجزيرة جزءا ن الابراطورية الروسيـــة عام ١٨٧٥ • وفى صيف عام ١٨٦٠ تم انشاء المنازل الخشبيـة المتواضعة المعروفة فى فلاديفوستك ، وفى الثانى من نوفمبر من العام نفسه أجبر الامبراطور الصينى فى بكين على الاعــتراف

بالحدود الصينية الروسية الجديدة ، وهى تقريب نفس الحدود القائمة اليوم • وفى الوقت نفسه قام العمال الصينيون ببناء ميناء فلاديفوستك والتحصينات الخاصة به • وفى عام ١٨٨٠ أصبح سكان هذا الميناء يتألفون من ستمائة من المدنيين الروس وأربعة الاف من الجنود الروس بالاضافة الى حوالى أربعة الاف من الصينيين والكوريين •

وكان الصينيون قد وافقوا قبل ذلك « ١٨٦٠ » على منح بعض حقوق التجارة فى تنوتافا ومنغوليا الا أن تجارة الأسلحة النارية والخمور كانت ممنوعة ، كما أن الاستيطان الدائم لم يكن مسموحا به ، ولذلك فقد أقام الروس خارج المدن فى الخيام أو القوارب وفى عام ١٨٨١ ـ أى فى بداية ما نسميه العصر الذهبى للاستعمار الحديث وهو مرحلة تقسيم أفريقيا وأسيا « ١٨٨٠ـ١٩١٩ » ـ تمت ازالة كل تلك القيود •

وفى هذه الفترة أيضا تم غزو منطقة ما وراء القوقاز وغربى تركستان التى سنتحدث عنها فيما بعد ، كما تم انشاء الخط الحديدى عبر سيبريا « ١٨٩١ـ١٩٠١ » وكانت احدى النتائج التى أسفر عنها ذلك هى هجرة ٦ر٥٠٠ر٠٠٠ روسى فى الفترة مابين ١٨٩٥ـ١٩١٤ وقامت الحرب الروسية اليابانية « ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ » وكان من نتائجها استيلاء اليابان على بورت أرثر ـ وكان الروس قد انتزعوها من الصينيين عام ١٨٩٨ ـ وكذلك حصولهم على النصف الجنوبى من جزيرة شمالين « بمقتضى معاهدة بورتسماوث فى ٥ سبتمبر عام ١٩٠٥ » كما تم توقيع معاهدة وفاقية بين روسيا واليابان عام ١٩٠٧ اعترفت فيها طوكيو بأن

منغوليا الخارجية منطقة نفوذ سوفييتية ، وتم احتلال اليابانيين لكوريا عام ١٩١٠ ، وأخيرا قامت روسيا بادماج منغوليا وتانوتافا فى أراضيها عامى ١٩١٢و١٩١٤

وفى الجنوب تمكن الروس فى الفترة من عام ١٨١٢ و١٨٧٨ من احتلال منطقة القوقاز الواقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين « احتل الروس باكو عام ١٨١٢ واحتلوا باطوم عام ١٨٧٨ » وكان جانب من أهالى هذه المنطقة من الاتراك ، ولديهم حضارة قديمه غنية وقد ابدى هؤلاء السكان مقاومة شديدة جدا تفوق بكثير تلك التى ابداها السكان البدائيون فى سيبيريا ، وقد تحدث تولستوى عن هذه المقاومة فى كتابيه : القوزاق « ١٨٥٢ » وحاجى مراد .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر شنت روسيا هجوما على تركستان الاسلامية وكان لها هى الأخرى حضارة قديمة خاصة بها ولا يحتاج المرء هنا سوى الرجوع الى العصر العربى « من القرن السابع الى القرن الثانى عشر » والعصر المنغولى « عن القرن الثالث عشر الى القرن الخامس عشر » وفى بداية القرن التاسع عشر عاش فى المنطقة التى تعرف اليوم باسم كازخستان القوزاق المستقلون المشهورون بالفروسية بينما وجدت فى الجنوب دولتا بخارى وكيفا المستقلتان واللتان يرجع تاريخهما الى القرن السادس عشر ، وهنا حكم الاوزبكيون وكانت اراضيهم تشبه الى حد كبير الجمهورية السوفيتية الواقعة الى الجنوب من كازخستان ، وكان كل الزوار الاجانب الى هذه المناطق هم تقريبا من العملاء والجواسيس البريطانيين والروس .

ولم تعد هذه الدول ذات الحضارةالاسيوية بقادرة على التمسك بتلك الحضارة ، أكثر مما فعلته غيرها من الدول الأخرى ، فى

مواجهة ثقافة فنية واقتصادية أرفع جاءت فى أعقاب غزو الجنود الروس لأراضى هذه الدول وفى عام ١٧٢٠ انتقل أول فوج من المزارعين الروس من الغابات الى السهول العشبية فى شمال كزاخستان ليزرعوا الأرض ، وفى عام ١٨٣٩ تم انشاء أول مراكز روسية محصنة شرقى بحر قزوين وفى عام ١٨٤٧ وصل «البرابرة» الى بحر آرال ووادى سيرداريا الخصيب وهو يعتبر بمثابة الباب الموصل الى قلب بخارى • وفى يونيو عام ١٨٦٥ استولى الضابط الروسى تشير نيشيف على طشقند مع ١٥٠٠ من القوزاق ، رغم ان ٣٠٫٠٠٠ من الجنود وعددا كبيرا من المدنيين كانوا يدافعون عنها من منزل الى منزل ، وعندما أصبحت مدينة « المعاطة » الواقعة على الحدود الصينية « عام ١٨٦٧ » وكذلك مدينتا بخارى وسمرقند « عام ١٨٦٨ » مدنا روسية كانت تلك هى نهاية الاستقلال القديم •

وفى الفترة مابين عامى ١٨٨٥و١٨٩٥ تمكنت قوات القيصر من الوصول الى قمم الجبال الثلجية فى منطقة هضاب البامير وذلك بعد أن عبرت كراسنافودسك على بحر قزوين « ١٨٦٩ » وكيفا « ١٨٧٣ » ، وفرغانة « ١٨٧٩ » وميرف على الحدود الايرانية « ١٨٨٤ » ، وأصبحت هذه القوات تبعد عن القوات البريطانية المرابطة فى جنوبى آسيا مسافة تقل عن عشرة أميال • ورغم انه سمح لكيفا وبخارى بان تظلا دولتين شبه مستقلتين ، ولم يجر ضمهما كما حدث بالنسبة لمنطقة كازاك ، وذلك لكى تصبح هناك دولة محايدة تفصل بين الاستعماريين الروس والبريطانى رغم ذلك فان بخارى كانت روسية ، بقدر ماكانت افغانستان بريطانية من وجهة النظر العسكرية • ولم يتقدم الروس اكثر

من ذلك • وبمقتضى المعاهدة البريطانية الروسية عام ١٩٠٧، التى اقرت تقسيم ايران ،والتى اعترف فيهانيقولا الثانى بأن أفغانستان والتبت مناطق غير روسية ، تم تثبيت الحدود التى كانت قائمةعام ١٩٠٠ •

وعملت بطرسبرج على تأمين سلامة الممتلكات الروسية الجديدة وصبغها بالصبغة الروسية ، فقامت بمد خطوط السكك الحديدية، مثل الخط الذى يربط بين بحر قزوين وسمرقند «١٨٩٠» والخط الذى يربط أورنبرج وطشقند « ١٩٠٦ » ولم تستطع مقاومة الشعوب الوطنية وخاصة الثورات الكبرى التى حدثت فى فرغانة « ١٨٨٦ » وفى سمرقند «١٨٩٢ » ان تغير الموقف

وهكذا فى هذا القرن التاسع عشر العجيب أصبحت آسيا كلها تقريبا باستثناء اليابان واقعة تحت الحكم الاستعمارى الغربى ، ولكن كم تغيرت أوربا نفسها تغيرا هائلا فى تلك السنوات ألم يكن للبيان الشيوعى « المانفستو الشيوعى » الذى وضعه ماركس وأنجلز « ١٨٤٨ » أثرا بعيد المدى فى تغيير اسيابالدرجة نفسها التى أثر بها فى أوربا ؟

ألم يكن « لاكتشاف » المطاط والبترول والكهرباء (١٨٤٠ ـ ١٨٨٠) ، وقيام مذهب مونيه التأثيرى (١٨٦٧) ، وبداية الفن الحديث ، واعمال باستور كوخ (١٨٨٠) ـ الم يكن لذلك كله اذا ما رجعنا الى الماضى تلالة بالنسبة لآسيا مثل ماله من دلالة بالنسبة لأوربا ؟ وقد جاءت الى أسيا فنون التكنولوجيا الغربية مع الاستغلال الاستعمارى ، كما جاءت اليها ايضا الأفكار الجديدة عن الحرية والديموقراطية ولم تستطع الحواجز الجمركية أو المحيطات أن تمنع عن أسيا ذلك كله •

وفى السنوات التى سبقت عام ١٩١٧ كان السكان الاسيويون فى الامبراطورية الروسية يحكمون من أعلى بدرجة تقل كثيرا عما كان الحال بالنسبة للسكان الوطنيين الخاضعين للغرب فى أسيا وأفريقيا ولم تكن منطقة ماوراء القوقاز ومنطقة تركستان مع ذلك سوى مستعمرتين • وكما حدث فى المناطق الشرقية الأخرى ـ وخاصة فى مصر وتركيا والهند والصين ـ فقد نشأت فى أسيا

الوسطى الروسية حركة تحريرية بين البرجوازيين والمثقفين على سبيل المثال حركة الشورى الاسلامية شـــــبه السرية فى أوزبيكستان ، فى الوقت نفسه الذى دخلت فيه الامبـــــراطورية الروسية حربا أوربية « اغسطس ١٩١٤ »

وقد اشتد الشعور العام بالكراهية ضد السيطرة الروسيـة عندما أعلنت الحكومة فى يونية عام ١٩١٦ عن رغبتها فى تطبيق نظام التجنيد العسكرى على سكان أسيا الوسطى البالغ عددهـم ٢٤ مليون و٢٥٠ الف نسمة وكان ذلك وقت الحصاد • ونتج عن هذا قيام حرب عصابات ضارية استغرقت اربعة شهور ، وخسر خلالها القرقيز والكازاق ١٥٠ الف نفس

وفى مارس عام ١٩١٧ وقف البورجوازيون المسلمون بصلابة وراء الحكومة الجديدة فى بتروجراد • وتقرر فى المؤتمر الاسلامى العام الذى عقد فى قوقاند فى نوفمبر من العام نفسه انشـــاء جمهورية تركستان المتمتعة بالحكم الذاتى • وعندما امتدت ثـورة نوفمبر البلشفية الى المناطق الاسيوية فى الامبراطورية تم تنصيب حكومات بورجوازية فى منطقة ماوراء القوقاز وكانت تلك الجمهوريات ـ على العكس من الجمهوريات التى أنشئت فى تركيا والصين

ـ مجرد بيوت من ورق فهوت أمام عاصفة الثورة والحرب الاهلية والتدخل الاجنبى

وفى ديسمبر عام ١٩١٩ استسلمت قوات كولشاك البيضاء فى اسيا الوسطى ، وفى ابريل عام ١٩٢٠ احتل الجيش الأحمر باكو ، وفى عام ١٩٢٠ ـ ٢١ تم تقسيم القوقاز وشمال تركستان الى عدد من الجمهوريات شبه المستقلة داخل الامبراطوريةالروسية وفى بادىء الامر لم يتدخل البلاشفة فى كيفا وبخارى . وكان اعتقال خان كيفا وطرد أمير بخارى ـ وقد فر مع زوجاته الى افغانستان عام ١٩٢٠ ـ من عمل الثوار البورجوازيين الوطنيين .

وفى أعقاب التدخل التركى الشاملمن جانب أنور باشا والنشاط الذى قام به « البيض » قام الجيش الأحمر فى اغسطس عام ١٩٢٢ باحتلال جنوبى تركستان وتم ادماج كيفا وبخارى فى تركستان السوفيتية وهكذا ظلت كل منطقة التتار الترك الاسلامية الواقعة بين بحر قزوين والصين ، ظلت جزءا من روسيا وأعلنت الحكومة الشيوعية وان لم تفعل ذلك من تلقاء نفسها تماما ـ اعتبار اجزاء كبيرة من المناطق المستعمرة السابقة دولا مستقلة « فنلندة ، بولندة ودول البلطيق » كما منحت أيضا مساعدة كبيرة لحركات التحرر الاسيوية خارج حدودها « فى تركيا والصين » وأعلنت استنكارها للاستعمار الغربى والاستعمار الروسى القديم واعتبرتهما « كالطاعون فى آسيا » وكان هذااجراءا تكتيكيا من ناحية ، ولكن كان يكمن وراءه ادراك لما كان يحدث فى البلدان المستعبدة فى آسيا . وقد قام لينين زعيم ثورة اكتوبر وفيلسوفها ، بدراسة الاستعمار فى اسيا قبل عام ١٩١٧ بوقت طويل ودمغه بانه « المرحلة الأخيرة للرأسمالية »

ويعتبر مؤتمر كل آسيا الذى عقد فى باكو فى سبتمبر عام ١٩٢٠ ، حيث قام حوالى ٢٠٠٠ شخص يمثلون كل دول اسيا تقريبا ببحث مسألة تحرير آسيا من سيطرة الغرب بمثابة حجر الزاوية فى تاريخ آسيا الحديث ، حتى ولو ينظر احد الى المؤتمر على انه مجرد حركة روسية فى المباراة السياسية الدولية ...
ويمكن التمييز بين ثلاث مراحل فى تاريخ الاتحاد السوفييتى فى الفترة مابين ثورة اكتوبر والغزو الالمانى للاراضى السوفيتية عام ١٩٤١ المرحلة الأولى « ١٩١٧ ــ ١٩٢٧ » تميزت بالحرب الأهلية وخوض التجارب الاقتصادية والاجتماعية والاتجاه نحو العالمية وهى أيضا مرحلة توزيع أراضى الاقطاعيات واتباع سياسة اقتصادية جديدة « ١٩٢٣ ــ ١٩٢٧ » وكانت هذه المرحلة بمثابة « العاصفة فوق أسيا » وفى عام ١٩٢٥ تم تثبيت حدود الجمهوريات والأقاليم العديدة المتمتعة بالحكم الذاتى . وكان ستالين يعمل حينئذ رئيسا لادارة القوميات فى الحكومة السوفيتية . شهدت المرحلة الثانية (١٩٢٨ــ١٩٣٤) اتمام الثورة وبداية خطط السنوات الخمس ، ونظام التجميع الزراعى وانعزال الاتحاد السوفيتى خلف حدوده التى جعلها بمثابة صورة روسية مكررة من سور الصين العظيم ، واضمحلال الشيوعية الدولية كما شهدت هذه الفترة اعادة النظر فى السياسة الخارجية بصفة عامة بعد فشل الثورة فى أوربا « المانيا والمجر » وخاصة بعد الانقلاب الصين عام ١٩٢٧ ، وكانت هذه المرحلة هى مرحلة الاشتراكية فى دولة واحدة . وفى المرحلة الثالثة (١٩٣٥ ــ ١٩٤١) أصبح يحدد السياسة الروسية التهديد المتزايد من من جانب المانيا واليابان ، وفيما يتعلق بالدول الأجنبية كانت

هذه السياسة تتمثل في الحملة الروسية لنشر مبدأ الامن الجماعي بالشكل الذي عرضه لتفينوف في جنيف ومعنى ذلك ربط الاتحاد السوفيتي « بالديموقراطيات البورجوازية » في محاولة لمواجهة الخطر الفاشستي ، وفيما يتعلق بآسيا كان ذلك يعني الاعتراف بنظام حكم شيانج كايشك في الصين ، وفي الداخل جرى العمل على رفع المستوى الاقتصادي والثقافي في سيبريا وآسيا الوسطى بصورة مطردة كاجراء وقائي يستهدف حفظ كيان روسيا في حالة قيام أي عدو باحتلال المناطق السوفيتية الصناعية الزراعية في وقد تحولت عدة مناطق على الحدود تقطنها شعوب آسيوية الى « جمهوريات مستقلة في الاتحاد السوفيتي وهي جمهوريات القوقاز الثلاث وكازخستان وكرخستان. وقد اصبحت أوزبيكستان وتركمانستان جمهورتين منذ عام ١٩٢٤ وتحولت تاجيكستان الى جمهورية عام ١٩٢٩. وفي الوقت نفسه ولأسباب تتعلق بالأمن ثم ترحيل الكثيرين من زراع الأرز لسيبريا في الشرق الاقصى ، الى أوزبيكستان وتوطينهم هناك . وفي الفترة من ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ وقعت عدة حوادث على الحدود بين الجيش الياباني في كوانتنج والجيش الأحمر . وفي خلال اجراءات التطهير الدموية التي جرت في الفترة بين ١٩٣٦ - ٣٨ في جميع انحاء الاتحاد السوفيتي ، اعتقل عدد كبير من المواطنين في المناطق الأسيوية من روسيا باعتبارهم جواسيس لليابان ، ومن انصار تروتسكي ومن دعاة «القومية البخارية » والقوميين البورجوازيين ، ويحتمل ان اكثر هؤلاء القوميين لم يكونوا يطلبون شيئا سوى منح الشعوب الاسيوية في الاتحاد السوفيتي مزيدا من الحرية .

وكان هدف البلشفيك من تقسيم الشعب الآسيوي الى

جمهوريات وأقاليم متعددة متمتعة بالحكم الذاتى هو التخفيف من المقاومة الطبيعية التى يبديها الكثير من الاسيويين فى مواجهة أى تعد من جانب الروس ولقد كان الاتجاه العام ايام القياصرة هو العمل على صبغ الشعوب الخاضعة لروسيا بالصبغة الروسية ، أما تحت الحكم السوفيتى فقد احتفظ الآسيويون فى روسيا بلغاتهم وثقافاتهم الخاصة •

وقد كانت الثورة فى روسيا ثورة « روسية » أساسا وليست ثورة آسيوية • وكان الحزب الشيوعى هو أساسا حزب العمال والمثقفين الروس مع احتفاظ الحزب بمظهر غربى ، ولم يكن هناك حزب اسيوى للفلاحين مثل الحزب الصينى فى الفترة ما بين ١٩٢٧، و١٩٤٩ وظل الأسيويون فى الاتحاد السوفيتى أقلية ضئيلة يتراوح عددها بين ١٠فى المائة و١٥ فى المائة من مجموع السكان وكان ثلثا السكان الآسيويين من التتار الترك ، وفى سيبريا لم يزد عددهم عن ٥ فى المائة ـ ومنهم الياقوت والمغول البورياطيون •• وعندما انقشعت الأزمة الكبرى للثورة ـ اذ نفى تروتسكى سنة ١٩٢٧ وفى الوقت نفسه هبط المستوى الاقتصادى فىالبلاد ماكان عليه عام ١٩١٤ ـ كرس الحزب الشيوعى نفسه تحت زعامة زعيمه الحديدى ستالين للعمل من أجل تدعيم الثورة وتامينها فى أقصر وقت ممكن • وكما يحدث فى أحدى القصص الاسطورية المليئة بالدماء تحولت مملكة تكاد ان تكون من ممالك العصور الوسطى الى اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية الحديثة ولم يكن العنصر الاسيوى أقل أثرا من العنصر الاوربى فى هذا المجال • وقد تم ادخال الآلات الحديثة فى الزراعة ووصلت الكهرباء الى القرى • وفى حين أنه لم يكن يوجد فى الاتحاد

السوفيتى قبل الثورة سوى الجبال والغابات والسهول العشبية فقد أصبحت فيه الآن المصانع وحقول الحبوب والقطن الجديدة ، وقد تطلب ذلك كله من الشعب ـ من الروس والاسيويين على حد سواء بذل الجهود الضخمة ، أما بالنسبة للحريات التى تعد جزءا من الديموقراطية الغربية مثل حرية الصحافة وحرية الاضراب ، وحرية الخطابة فقد فرضت عليها القيود الى درجة الاخماد ، وتم ترحيل أعداد لاحصر لها من السكان ، قد يعدون بالملايين ، الى معسكرات العمل باعتبارهم مجرمين ومخربين وقد وصف الكثيرون منهم فى الأدب الروسى الذى انتشر فى عصر ستالين باعتبارهم « مخلوقات دنيئة » ٠

وفى عام ١٩٣٣ أصبح شبح الخطر الفاشستى الذى اعتقد الكثيرون فى أوربا وامريكا أنه من صنع الخيال الشيوعى ، حقيقة ملموسة تماما ولو لم تكن الحكومة الروسية قد ادخلت وسائل المدنية على البلاد بمثل هذه الطاقة العنيفة لكان الاتحاد السوفيتى قد قسم فى عام ١٩٤١ ، ان لم يكن قبل ذلك ، بين المانيا واليابان وقد سلط التهديد من الخارج ضوءا قويا على الطابع المتواضع للتوسع الروسى فى شمال الصين ٠ وقد كانت « تانوتافا » وهى المنطقة الجبلية المستقلة التى يقطنها المغول والبوذيون فى شمال غربى منغوليا ، تعد عام ١٩٢٩ جزءا من روسيا من الناحيتين الاقتصادية والثقافية وفى عام ١٩٤٠ استخدمت حروف الكتابة السوفيتية فيها ، وفى الفترة ما بين ١٩٤١ و١٩٤٥ تم تصدير ٥٠٠ الف رأس من الخيول من هذه المنطقة الى سيبريا وفى اكتوبر عام ١٩٤٤ أصبحت تانوتافا « بمحض اختيارها ! » منطقة متمتعة بالحكم الذاتى فى اتحاد الجمهورية السوفيتية الاشتراكية

وكان عدد سكانهـا فى ذلك الحين ١٠٠ الف نسمة أغلبهـم من رعاة الماشية •

أما اقليم سنكيانج الصينى الذى يقع الى الشمال من التبت (وعدد سكانه ٤ ملايين من الأوزبيكيين والقوزاق والصينيين) فقد أصبح نتيجة للثورة المحلية التى قامت فى عام ١٩٣٢ فى شينج تشى ساى اقليما شبه روسى من الناحيتين الاقتصـادية والعسكرية (١٩٣٢ ـ ١٩٤٣) وفيما يتعلق بمنغوليا الخارجية فأنه عندما احتل اليابانيون كل منغوليا عام ١٩٣٣ ووصـلوا الى حدود منغوليا الخارجية تردد الاقليم بين الاتجاه الى موسكو او الاتجاه الى الحكومة الصينية ـ أو على الأصح الحكومة اليابانية ـ فى نانكين • وفى عام ١٩٣٧ « اختفى » عدد من الوزراء المنغوليين اثناء قيامهم برحلة الى موسكو واصبح المارشال تشويبالسان الذى يوصف بأنه ستالين المنغولى (١٨٩٥ ـ ١٩٥٢) رئيسا للوزراء وقائدا أعلى للجيش فى منغوليا الخارجية وسمح تشويبالسـان للجيش الأحمر بدخول منغوليا الخارجية وكان ذلك وحده هوالذى منع احتلال اليابانيين لمنغوليا الخارجية • وقد تعرضت أراضى منغوليا الخارجية للغزو قبل عام ١٩٤١ فى الوقت الذى شهد فيه جيش كوانتونج حربا سرية على آمور وحدود منغوليا « مايـو وأغسطس ١٩٣٩ » وهى الحرب التى وصفتها الصحافة العالمية حينذاك بأنها سلسلة من « حوادث الحدود » وقد استخـدمت فيها قوات يابانية لايقل عددها عن مائة الف جندى •

ونتساءل ، كيف أى حد استطاعت الثورة ان تبسط نفوذهـا على المناطق الآسيوية من روسيا ؟ ان ادخال وسائل المدنيـة الى سيبريا وآسيا الوسطى كان يعنى :

«١» زيادة مطردة فى عدد الروس والأوكرانيين الذين تسند اليهم وظائف فنية وعلمية ورغم ان الثورة والحرب الأهليةحرمت روسيا من عدد غير قليل من مثقفيها ، فقد قام العهد الجـــديد بارسال عدد كبير من الفنيين والثوريين الى المناطق الآسيوية بينما تم ابعاد الكثيرين ، ابتداء من المزارعين الى المهندسين المهـــرة الى سيبيريا • وفى عام ١٩١٤ أصبح ٨٥ فى المائة من سكان سيبيريا من الروس و٤٠ فى المائة من سكان كازاخستان من الــــروس وفيما بين عامى ١٩٢٧و١٩٣٩ توجه عدد آخـــر من الــــروس والأوكرانيين ، يبلغ خمسة ملايين نسمة ، الى الاقاليم الاسيوية ، ومن هؤلاء توجه مليونان الى الجمهوريات الاسلامية • وفيما بين عامى ١٩٤١و١٩٤٥ ، وهى الفترة التى احتل فيها الالمان غـــربى روسيا وأوكرانيا ، استوطن أكثر من أربعة ملايين من غيرالآسيويين المنطقة الواقعة الى الشرق من الخط الممتد بين الأورال وقزوين وبذلك أصبح الآسيويون فى سيبريا أقلية تتضاءل باستمرار ففى كازاخستان نجد أن نسبة تقل عن ٤٩ فى المائة من السكان من غير الآسيويين ، وتبلغ هذه النسبة فى كيرغستان ٢٠ فى المائة بينما يختلف الموقف عن ذلك تماما فى الهند وأندونيسيا والهند الصينية ، حيث نجد أن الاوروبيون هم الذين يشكلون أقلية ضئيلة جدا •

ومن الطبيعى أن نجد أن النسبة العالية لعدد غيرالاسيويين فى آسيا الروسية تؤثر فى « استقلال » هذه المناطق ، ويتضح ذلك بصورة أكبر عندما نعلم أن الروس يحتلون المناصب العالية فى هذه المناطق ، كقاعدة متبعة ، ولكن ليس بصورة دائمة ، ومن المؤكد أن هذا لايعتبر بمثابة قاعدة ثابتة ذلك لأنه يعيش فى

تلك المناطق أيضا الكثير من المزارعين والعمال الروس • ولكننا نجد على سبيل المثال ، أن نسبة تتراوح بين الربع أو الثلث فقط من عدد الفنيين الذين يعملون على الآلات الزراعية فى كازاخستان، من القوزاق ، وان التزاوج بين الأجناس ــ وهو شائع هنا ، نظرا لأنه لاتوجد فى روسيا مشكلات تتعلق بالجنس أو اللون ــ يعمل على تقليل الفروق بين الروس والآسيويين ، وفى الوقت نفسه تحدث الأفكار « غير الاستعمارية » التى نشرتها الثورة اذا قورنت بالأفكار التى كانت سائدة قبل الثورة ، تغييرا جذريا ، وان لافتات مثل « الآسيويون ممنوعون » وهى التى لاتعد أمرا غير عادى فى المناطق المستعمرة الأخرى ، أو حظر التزاوج بين البيض وغير البيض (كما يحدث فى جنوب افريقيا وبعض اجزاء من الولايات المتحدة) ، هذه الأمور ، لاوجود لها فى الاتحاد السوفييتى •

«٢» ادخال الأساليب الحديثة فى الزراعة • ولم يكن لدى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية عند انشائه سوى عدد ضئيل جدا من المصانع وعدد ضئيل جدا من العمال •وكانت روسيا والمناطق الآسيوية من الامبراطورية كلها لها طابع زراعى وان استخدام الآلات وتطبيق النظام الجماعى فى الزراعة ،وبمعنى آخر تجميع الكثير من قطع الأراضى التى يمتلكها صغار المزارعين وتحويلها الى مزارع جماعية «كولخوزات» تضم كل منهافى المتوسط الف فدان يعد من حيث المبدأ وسيلة علمية لتحقيق انتاج أكبر بواسطة عدد صغير من المزارعين ، وهذا يعنى بالتالى زيادة عددعمال المصانع • الا أن ذلك قد جعل المزارع أقل حرية • ولقد سحقت دون رحمة المقاومة التى واجهت « الثورة الزراعية الثانية » فى الفترة من ١٩٢٧ الى ١٩٣٣ ، وخاصة من جانب المزارعين الاغنياء ، فى

المناطق الأوروبية والآسيوية على حد سواء بالاتحاد السوفيتى • وفى شتاء عام ١٩٢٩ ثم نفى حوالى خمسمائة الف من المزارعين مع عائلاتهم الى سيبيريا ، وفى كازاخستان ، بسهولها العشبية الشاسعة وخيولها البرية ، التى تعد رمزا رومنتيكيا للحرية عند اهل السهول ، كانت هذه الفترة فترة رعب ومجاعة وفوضى ، ويقدر عدد القوزاق الذين فروا الى منطقة سنكيانج الصينية فى ذلك الوقت بما يتراوح بين مائة الف ومائتى ألف شخص •

وأدركت الحكومة أنها تطرفت فى تصرفاتها الى حد بعيد ، ذلك لأنه فى هذه الفترة هبط عدد رؤوس الماشية الى النصف ، ولهذا فقد سمحت للذين يقومون بتربية الماشية فى المزارع الجماعية بأن يمتلكوا عددا يتراوح بين ثمانى وعشر أبقار ، ومائة من الخرفان وعددا يتراوح بين ثمانية وعشرة خيول ، وعددا من الجمال يتراوح بين ثلاثة وأربعة وسمح للفلاحين الذين يزرعون الأرض بامتلاك بقرتين او ثلاث أبقار ، ومن عشرة الى ٢٠ خروف ، ومن عشرة الى ٢٠ خنزيرا • ومع ذلك ، استطاع البلاشفة ، بصفة عامة ، ان يستمروا فى تنفيذ مشروعاتهم الزراعية رغم بقاء مشكلة المزارعين كمشكلة خطيرة جدا بالنسبة للاقتصاد القومى

وقد ازادت مساحة الأراضى الزراعية فى آسيا السوفيتية من ٣٤ مليون فدان عام ١٩١٤ الى ٦٥٫٥٠٠٫٠٠٠ فدان عام ١٩٢٨ وارتفع هذا الرقم الى حوالى ٧٥ مليون فدان عام ١٩٥٤ ، وتم شق الكثير من القنوات الجديدة فى كازاخستان وأوزبيكستان وتركمنستان وغيرها من الجمهوريات الاخرى لرى حقول الأرز والحبوب والقطن وفى عام ١٩٣٧ ثم رى حوالى تسعة ملايين فدان واليوم يجرى رى حوالى ضعفى هذه المساحة • وقناة فرغانة لها

شهرتها فى الخارج (طول القناة ١٨٤ ميلا وقد تم شقها عام ١٩٣٩) ، وفي أوزبكستان وحدها تم شق قنوات يبلغ طولها حوالى ٢٢٠ ميل • وكانت جمهوريات صغيرة مثل تركمنستان وكيرغستان تمتلك عام ١٩٤٠ حوالى أربعة الاف جرار ومعنى ذلك توفير جرار لكل خمسمائة فدان من الأراضى التى يجرى حرثها ، وهو مستوى بعد أقرب الى المستوى الأوروبى مما هو فى اية دولة آسيوية اخرى

«٣» التوسع فى نظام المواصلات كأساس للاقتصاد الحديث والتمدين ولقد كان النموذج القديم لهذا التوسع هو مد الخط الحديدى الذى يربط بين تركستان وسيبريا ،وقدعرف باسم تركسيب (يزيد طول الخط عن تسعمائة ميل وقد انشىء فى ١٩٢٧ــ٣٠) وكان هذا الخط هو أول خط اتصال حديث يربط سيبيريا الغنية بالفحم والقمح بمناطق زراعة القطن فى الجنوب

ورغم أن جمهوريات آسيا الوسطى ليس فيها ، كما ذكرنا من قبل ، أية مستودعات هامة للفحم والحديد وأن المراكز الصناعية بالاتحاد السوفييتى موجودة فى مناطق اخرى ــ فى أعالى نهر الفولجا ، وفى منطقتى الدنيبير والدون فى أوكرانيا ، وفى الأورال وفى مناطق كوزنسك الواقعة بين أعالى نهر أوب وأعالى نهر يينيزى ــ فان آسيا الوسطى الروسية ليست مجرد منطقة زراعية تنتج كل محصول روسيا من القطن تقريبا ، فعلينا أن نذكر آبار البترول فى باكو بمنطقة القوقاز ، وفى منطقتى (أمبا) (ونبيت داج) الواقعتين فى الشمال والجنوب الشرقى من بحر قزوين ، ومناجم الفحم فى كراجاندا ، ومصانع صهر النحاس فى منطقة بحيرة بلتشا فى كازاخستان ، والتى تعد أكبر مصانع

من نوعها فى آسيا وأوروبا ، ومصانع الأقمشة المتعددة فى طشقند وفرغانة وستالين أباد ، ومصانع السماد الكيماوى والآلات الزراعية والجرارات فى طشقند وأكمولنسك • وقد ساعد ذلك كله بطبيعة الحال على توثيق الروابط بالاقتصاد السوفيتى • الا انه فى الوقت الحاضر ، حيث تحولت الزراعة الى صناعة ، اليست المصانع والجرارات والأسمدة الصناعية هى الأساس الوحيد ، الذى نعرفه لرفع مستوى المعيشة لدى جموع الفلاحين ؟

ولسنا هنا فى حاجة أن نتعرض للتفاصيل المتعلقة بحملة التمدين التى تعرضت لها سيبيريا ، وهو ما تحقق جانب منه بفعل مجهود المسجونين القادمين من معسكرات الاعتقال • ورغم أن سيبيريا تعد من وجهة النظر الجغرافية جزءا من قارة آسيا فانها لاتضم سوى عدد ضئيل جدا من السكان الآسيويين ، ومع ذلك فمن الطريف أن نعلم كيف استطاع الرعاة البدائيون الحصول على الكتاب والأفلام والخدمات الصحية الحديثة وكيف استطاع علماء البيولوجيا والمهندسون أن يجعلوا الطرف الشمالى من الرقعة الزراعية يمتد وسط المناطق الشمالية المتجمدة حتى يصل الى البحر المتجمد وكيف استطاع علماء الأرصاد الجوية وعمال الموانىء والبحارة أن يستوطنوا هذه البقعة وأن يزرعوا الخضروات فى بيوت خاصة بالحرارة الصناعية وذلك خلال بعثتهم التى استهدفت تأمين الممر البحرى الاستراتيجى ـ وهو مشروع سليم من وجهة النظر الاقتصادية ـ وسط الضباب ودرجات البرودة التى تبلغ التجمد فى الشمال • وهذا الممر الشمالى الشرقى الذى يربط بين أوروبا وشرقى آسيا كان يعد فى القرن السادس عشر حلم البحار الأوروبى • وسوف يذكر

الهولنديون كيف أن هيمزكيرك وبارينتز أمضيا شتاء رهيبا فى منطقة نوفايا زيمليا • وفى عام ١٨٧٨_٧٩ أمضى نوردنشولـــد السويدى صيفين وشتاء هناك لكى يحول الحلم الى حقيقة • الا ان سفن الشحن لم تبدأ القيام برحلاتها عبر هذا الممر بصورة فعلية ، الا بعد الرحلات التى قامت بها سفينة صيد الحيتان الاسكتلندية ، « سبيرياكوف » هناك _ وكانت هده السفينة هى اول سفينة تبحر من ارتشانجلسك الى بحر بيرنج خلال صيف واحد عام ١٩٣٢ _ وبعد رحلات محطمة الثلوج الروسية جوزيف ستالين التى قامت فى صيف عام ١٩٣٩ بالابحار هناك والعودة مرة أخرى ،فقطعت بذلك مسافة ٢٧٥٠ ميلا •

وعلى الرغم من القيود التى فرضت على حرية الكلام والنقد ، وعلى الرغم من الاستقلال الاسمى للجمهوريات الاسيوية السوفيتية فان الثورة فى أسيا الوسطى والقوقاز قد رفعت من المستـــوى الثقافى والاقتصادى لشعوبها بصورة تفوق الوضع القائم فى أى جزء من آسيا بما فى ذلك اليابان • فلم يكن المزارعون فى اندونيسيا ومصر وشبه الجزيرة العربية والصين وباكستان _ والهند يملكون فى عام ١٩٤٠ من الجرارات وآلات الحصاد ومصانع السمـــاد الكيماوى والمراكز الطبية والصحية اعدادا تقارن بما كان موجودا فى آسيا الروسية حينذاك •

(٤) تم القضاء على الأمية • وهل حدث ذلك فى أى مكان آخر من أسيا ؟

وفى عام ١٩١٤ كانت نسبة الذين يستطيعون القراءة والكتابة فى تركستان تتراوح بين ٢،١ فى المائة لاغير من مجمـوع السكان

وفى عام ١٩٤٠ ارتفعت هذه النسبة الى ٧٥ فى المائة وفى عام ١٩٤٥ أصبح كل السكان تقريبا يستطيعون القراءة والكتابة • وحتى منغوليا الخارجية ، التى تقع خارج الحدود الفعلية للاتحاد السوفيتى ، اثرت فيها الثورة الثقافية الروسية وفى عام ١٩٥٠ ، صار ٨٠ فى المائة من سكان منغوليا الخارجية يقرأون ويكتبون بينما لم تكن هذه النسبة تزيد عن واحد فى المائة عام ١٩٢٤ ، وذلك طبقا للتقارير البريطانية والأمريكية

وفى عام ١٩١٤ لم تكن توجد فى تركستان صحيفة واحدة تصدر باللغة القومية ، بينما فى عام ١٩٤٠ أصبح وجد فى كل القرى تقريبا صحف تصدر باللغات المحلية • وفى الاتحاد السوفيتى تصدر الصحف اليوم بثمانين لغة مختلفة ، والمجلات بخمسين لغة • وفى جمهورية مثل كازاخستان ،وهى جمهورية صغيرة نسبيا ، توجد اربعة الاف مكتبة اغلبها مكتبات متنقلة ، وفى جمهورية ياقوتيا السوفييتية ، المتمتعة بالحكم الذاتى ، صدر ثلاثة آلاف كتاب بلغتها المحلية منذ ثورة أكتوبر حتى اليوم

وفيما يتعلق بالطب والصحة يوجد فى كازاخستان طبيب لكل ٢٥٠٠ الى ٣٠٠٠ فرد وحوالى نصف هؤلاء من الآسيويين ، وفى جمهورية صغيرة نسبيا ، مثل جمهورية تاجيكستان السوفيتية ، يوجد اليوم تسعمائة طبيب بينما لم يكن يوجد فيها سوى ٢٠ طبيب عام ١٩٢٥ لكل ألفين من السكان ، وهى نسبة مساوية لتلك الموجودة فى الدول الغربية •

على انه ليس من هدف هذا الكتاب تقييم الثورة الروسية وتأثيرها على المناطق الاسيوية الا ان الدلالة التاريخية الضخمة

لا بدأ تنفيــذه فى بطرسبرج النائية أمر لايتطـرق اليه الشـك
عـلى الاطلاق فان الثورات التى تحدث اليـوم فى الصـين وكوريا
والهند الصينية ربما يختلف بعضها عن البعض الآخر كثـيرا الا
انها تعتبر كلها نتيجة للثورة الروسية ،وقد قامت الثورةالروسية
الى حد كبير ، بوضع طابعها الخاص على مستقبل آسيا

٦

اليابان والصين ومنغوليا وكوريا

رأينا كيف أن اليابان استغلت فارق الوقت بين روسيا القياصرة وروسيا السوفييت ، وكيف ان اليابانيين نزلوا فى ميناء فلاديفوستك فى ٣٠ ديسمبر ١٩١٧ • والاسم نفسه يعنى « حاكم الشرق » وقد أضحت اليابان هذا الحاكم بامتلاكه • وكانت تلك ثالث محاولة كبرى تجرى لاخضاع القارة ـ حلم امبراطورية الجزيرة العظيم منذ عام ١٨٩٤ ، او منذ عام ١٩٠٤ على أية حال • ويستطيع المرء بالطبع ان يعتبر حرب عامى ١٩٠٤ـ١٩٠٥ كحرب دفاعية • الم يسع القيصر فى ذلك الوقت لغزو كوريا دفعةواحدة والى الابد ، كوريا القريبة جدا من اليابان • ألم تتدخل روسيا فى الحرب الصينية اليابانية عام ١٨٩٥ ؟ ألم يحصل الروس على بورت أرثر فى عام ١٨٩٧ ، وعلى منشوريا فى ١٩٠٠ ، وفى الوقت نفسه، ألم يسر أول قطار على خط حديد ماوراء سيبريا الى فلاديفوستك •

لم تنظر اليابان بجد على اية حال صوب أسيا الشرقية • واذا كانت الرغبة فى الغزو لم تقع فعلا الا فى عام ١٩٣١ ـ بغزومنشوريا ـ فقد حدثت قبل ذلك أشياء لم تكن لتسر روسيا أو الصين أو الدول الغربية ، فعندما أعلنت اليابان الحرب على المانيا فى ٢٣ اغسطس عام ١٩١٤ ، لم تظهر أى اعتبار أو احترام لحياد الصين فلم تستول فقط على الجزر الالمانية فى المحيط الهادى ، ولكنها

استولت أيضا على الممتلكات الالمانية فى شانتونج ، لاسيما فى الأرض المؤجرة وفى ميناء كياوشو على البحر الأصفر ، الذى اصبح المانيافى عام ١٨٩٨ ، واستسلمت حاميته بعد حصار شهر • ثم حـلت التجارة اليابانية محل التجارة الألمانية • وكان هذا أمرا ممكنـا لأن اليابان ـ كما بينا ـ كانت قد دعمت صناعتها الواسعة النطاق والتى كانت تستطيع فى بعض المجالات ، كالسلع القطنية مثلا ، أن تنافس صناعات الألمان والبريطانيين ويرجع انشاء « الترست » أو المجموعة التى ضمت شركتى ميتسو وشركة ميتسوبيشى الكبيرتين الى عام ١٨٩٣ • وكانت فترة الحـرب بالطبـع فتـرة مريحـة جدا بالنسبة للصناعات اليابانية ، لم تغفل فيها اية فـرص •• فأسرى الحرب الألمان الذين كانوا محتجزين فى اليابان أرغموا على العمل فى انتاج البيرة بالوسائل الاوربية • وكانت النتيجـة بيرة اساهى التى تماثل فى طبعها اية بيرة المانية • كذلك تكونت ثروات كبيرة من امداد ذخائر الحرب فى روسيا • وكانت السفن الحربيـة اليابانية تصنع قبل عام ١٩١٤ فى الأحواض البريطانية على الأغلب وكانت جميع القاطرات اليابانية تأتى من أمريكا • لكن اليابـان أصبحت فى عام ١٩١٩ تصنع بنفسها الطـرادات والقاطرات فى أحواضها وورشها ونشأت شركات صناعية كبرى ، وأصبحت البلاد كلها كاناء ضخم يأخذ الرأسماليون زبدته الغنية ويتركون زبده للعمال • وهؤلاء ليس من المفروض ان يكونوا ذوى حاجات •

واذا كان المرء يملك شيئا ، فأنه يريد المزيد • لذلك ازدادت رغبة ملوك الصناعة فى اليابان فى مد نفوذهم فى القارة • وطمعوا فى فحم منشوريا وشانتونج ، وقطن وادى اليانجتسى وأرزه • وكانت الصين ظلـ أضحت فى الأعوام التالية لثورة ١٩٢١ بلدا لاحول له ولا

قوة • وكان المعتقد فى اليابان الا حاجة الى شن الحرب ، لأن المسألة لم تكن لتحتاج اكثر من أن تطلب ما تشتهيه لتجده • ونتجـــت عن ذلك •• الطلبات الاحدى والعشرون) التى قدمتها اليابـــان الى الصين فى يناير ١٩١٥ • وكانت هذه الطلبات المؤدية تشبـه المطالب على نحو يثير الريبة • فكانت فى الحق بداية العـــدوان اليابانى على الصين وعلى سائر أنحاء الشرق الأقصى • ويمكن تقسيمها الى خمس مجموعات ، الاستيلاء على حقوق الألمان فى شانتونج ،ومد أجل تأجير جنوب منشوريا لليابان الى ٩٩ عاما ، بالاضافة الى حرية التجارة فى تلك المنطقة ، ثم الحصول على نصف الاسهم فى سلسلة من مصانع ومناجم الحديد والصلب ، والحصول على تأكيد بان الصين لن تؤجر جزءا من ساحلها أو تتخلى عنه الى أية دولة أخرى وأخيرا قبول المستشارين اليابانيين فى المجالات السياسية والعسكرية والمالية • وكان هذا كله بمثابة تدخل وسرقة فى الوقت نفسه • وكانت اليابان قد اقسمت صراحة ان تحقق اهدافها واضحت هذه الأهداف عندئذ واضحة كضوء النهار • كانت اليابان تريد أن تحل امبريالتها مكان الامبريالية الغربية •

وقد ظهر فى النهاية أن هذا المطمع اليابانى كان وهما ، لكنه أوشك أن يتحقق فى خلال الحرب العالمية الثانية ولو لفترة قصيرة ولن يمكن انكار اهميته الضخمة للعالم ،فالامبريالية اليابانية كانت ـ على عكس المقصود منها ـ عاملا كبيرا فى تحقيق الحرية للصين ولسائر الدول الاسيوية • ففى خلال قرابة عشرين عاما من الاشتـــباكات والحرب مع اليابان ، أدركت الصين أخيرا الحاجة الى أن تدافـــع عن نفسها ضد الامبريالية الغربية • وقد ظهر هذا فيما بعد • لكن لم يكن رد الفعل عند الصين فى عام ١٩١٥ وقد حاول يوان شى كا

الـذى اصبح رئيسا للجمهورية الصينية فى عـام ١٩١٢؟ بـدل صن يات ـ سن ، ان يستغل الهزيمة الوطنية فى الترويج لمخطط غادر كان قد وضعه فقد ذكر أن الأمور ستظل سيئة مادام ليس ثمة امبراطور • ومن ثم حاول ـ بثورة من ثورات القصر « ديسمبر ١٩١٥ » أن ينصب نفسه امبراطورا • لكن قامت ثورة مضـادة فى يونان أحبطت هذه الخطةاللئيمة الحمقاء • فان ادخال الأساليب الحديثة كان قد جلب تقدما كبيرا لايسمح بنجاح مثل تلك الثورة لكنها دلت على مايبدو على ان ثورة ١٩١١ كانت سابقة لاوانها ، ويقع جزء من المسئولية فى هذا على عاتق الغرب ،الذى أظهر تدخله عدم كفاية النظام الامبراطورى • وكل مانشأ بعد ذلك منمصادمات زاد من الانقسامات الفوضى فى الصين فى أخر الامـر نتائجمجموعة واحدة من الظروف جلبهـا عام ١٩١١ ـ وجود نظام جمهـورى وكانت كلها يريد أن يجعل من الصين بلدا رأسمالية حديثا دون ان يملك القدرة على ذلك أو يكون مستعدا لأن ينفصل تماما عـن الأساس الاقطاعى للمجتمع •

كان ذلك وقتا عصيبا للصين ، فترة بغير نهاية على مايـبدو يتقاتل فيها لوردات الحرب « التوفون » كل حاكم مقاطعة ضدالآخر وكل جيش ضد الجيوش الأخرى • وكل ذلك على حساب الفلاحين يشعل لهيبه الأجنبى ـ بريطانيا واليابان قبل عام ١٩١٤ ضـد أمريكا ثم بريطانيا وأمريكا ضد اليابان ، بينما أضحت حكومـة بكين مجرد جماعة رجعية ـ حزب انفو المزعوم « ١٩١٧ » الـذى لم يكن يستطيع أن يبقى على نفسه الا بمساعدة الأموال والحـراب اليابانية •

ولم يكن لاعلان الحرب على المانيا « ١٤ اغسطس ١٩١٤ » الا

مكاسب حقيقية قليلة ، فقد اختفى امتداد المانيا الى ماوراءاراضيها واختفت الامتيازات الالمانية وكان هذا بالطبع مثار سرور لبريطانيا وفرنسا • لكن دخول الصين الحرب لم يكن له اية نتائج عسكرية على الاطلاق حتى وان كانت الصين قد ارسلت بالفعل بعض كتائب العمال الى فرنسا وبلاد مابين النهرين وافريقيا • ولكن عندما نشبت الثورة الروسية ونزلت القوات اليابانية والبريطانية والأمريكية فى فلاديفوستوك ، سعى اليابانيون الى اقحام الصينيين فى الجبهة المعادية للشيوعية • ودرب ضباط من طوكيو القوات الصينية لخوض الحرب فى سيبيريا • لكن النجاح فى هذا الصدد لم يكن بالتمام ما كان متوقعا، الا انه فى حد ذاته لم يكن عديم الأهمية فلم تكن الثورة الروسية لتوقف على وجه اليقين ، لكن اصبح للصين لأول مرة بعض قوات حديثة • وعندما نشبت الحرب الأهلية العظمى فى الصين عام ١٩٢٧ استطاع كاى شيك — ومن بعده ماوتسى تونج — أن يستخدما على نحو طيب المعرفة والخبرة اللتين أمكن اكتسابهما من المدربين اليابانيين • وهنا نجد مرة أخرى عاملا من عوامل يقظة الصين ، تطورا كان مناقضا تماما لمخططات الدول الأجنبية • ونحن لانعلم ان كان للتاريخ معنى خاص به ،أم أنه يتبع طريقا مقررا ، لكننا نستطيع أن نقول مرة أخرى انه دائما يقود الى شيء — وفى هذه الحالة كان يقود الى صحوة الصين • والدراسة المحايدة المنزهة للحقائق تعلمنا أن كل شيء يساعد العملية العامة — حتى تلك التدابير التى يتخذها اولئك الذين يريدون وقف هذه العملية أو تحويلها فى اتجاه أخر • فمثلا لم يكن الهولنديون ولا اليابانيون يريدون أن تستقل اندونيسيا •

ومع ذلك فماذا كانت النتيجة الختامية لكل جهودهم واصلاحاتهم فسرهم وارهابهم ؟ .. جمهورية اندونيسيا المستقلة !

في عام ١٩١٦ عاد صن يات ـ سن من المنفى وصاغ برنامجه العظيم في الانشاء والبناء والتمدين ومضى فيه على اقتراض امكان الحصــــول على رأس المال الأجنبي اللازم لمشروعه دون ان يدع بلاده تصبـــح شبه مستعمرة . وكان جهـده ـ في صورة ساذجـة ـ يشبه الى حد كبير المشروعات التي حاول الاتحـــاد السوفييتي طلب صن من الدول الكبرى الى التخلي عنها كوهم من الاوهام .وفي طلب صن من الدول الكبرى ان تعطيه من المال قدرما تكلفت في يوم واحد من أيام الحرب . لكنه أيضا كان مضطرا الى التخـلي عن مشروعه ، ولم يكن على عكس البلاشفة في مركز يسمح له بان يوقظ ، بغير تدخل اجنبي ، طاقات بلاده لاستحداث الأســاليب الحديثة ، وربما كان صن رجلا سازجا ، لكنه من ذلك كان عظيما جدا ـ كان رجلا قد أدرك انه يجب ان يتعلم من الواقع قبل أن يستطيع التأثير فيه . وكانت تجربته المريرة في فيرساى ، حيث تجاهلته الدول وتجاهلت مشروعه ،وحيث أقدم السادةالاوربيون على اعطاء الامتيازات الالمانية السابقة في شانتونج الى اليابانيين بدل اعادتها الى الصين مما جعله يعتقـد ان ليس من الواجب ان يقصد الى الأجنبي في طلب العـون ، على ان يتحـــول الى بلاده نفسها ، لا الى البورجوازيين فيهـا بل الى العمال والفلاحين . ومن ثـم كان صن يات ـ س ، بوصفه رئيسا للحكــــومة المنافســة في كانتون عام ١٩٢٠ أول من حاول جذب هذه الطبقات الى الاشتراك الفعلي الايجابي في الثورة .

ويجب الا ننسى عندما نعرض للتاريخ الصينى اننـا نتنـاول دولة ضخمة • فاذا حسبنا الأقاليم الخارجية كالتبت لوجدناهـا فى مثل مساحة اوربا ، وضعف مساحة الهند وباكستان وتضم ربع مجموع التعداد العالمى • أنها بلاد تقع فيها حقول القصب بجزيرة هاينان تجاه ساحل الصين الجنوبى ، على مسافة نحو ١٥٦٠ ميلا من بكين ، بينما تقع بكين نفسها على مسافة ٩٤٠ ميـلا من القمم الثلجية للجبال على نهر الأمور فى شمال منشوريا •واذا تركنا القطاعات المكتظة بالسكان ، وجدنا المسافة بين منشوريـا الشرقية والتبت الغربية ـ حيث ينبع نهر السند وبراهما بوترا أكثر من ٣ آلاف ميل ، واننا لنستطيع بالنسبة الى الفترة التى نعالجها ان نقول على وجه اليقين تقريبا ، أن ما تعرضت له الصين من تقطيع أوصالها على نحـو فوضوى دموى كان من الناحيـة الرئيسية نتيجة الكفاح الاجتماعى الذى زاد من حدته التدخـل الأجنبى • لكن يجب فى الوقت نفسه أن ندرك أن المساحةالضخمة المترامية للبلاد ومواصلاتها اللعينة كانت ايضا عوامل ذات شـأن كبير • ولم يكن فى المستطاع حتى فى عام ١٩٢٠ السفر من كانتون الى شنغهاى بالقطار •

وكلا العاملين السالفين كان له صلة كبيرة بالأحداث فىمنغوليا الخارجية • وقد كانت منغوليا الخارجية أول جمهوريةسوفيتية تقع خارج حدود الاتحاد السوفيتى ، وفى منطقة ظلت مقاطعة صينية لعدة قرون • وجمهورية منغوليا الشعبية ـ كما تسمى هذه البلاد الآن رسميا ـ يبلغ تعدادها اليوم نحو مليونى نسمة ، اغلبهـم من المغول ، لكن ثمة ١٠٠ ألف روسى و٥٠ ألف صينى كذلـك • وتوجد حاليا مشروعات كبيرة للتنمية الزراعية • لكن البلاد لاتزال

نموذجا للمنطقة الخارجية الأسيوية • انها بلاد الضأن والجمال والخيل • وفيها ٧٠٠ الف جمل ، وهو عدد لايمكن ان نوازن به المصانع والمناجم القليلة هناك • وتفصلها عن الصين صحارى رملية وحجرية وسهول جرداء ، لايزال المرء يجد فيها اطلالا تغطيها الرمال لمدن كانت مزدهرة يوما ما ، كأنما فى ذلك الدليل على فناء كل ماهو متصل بالأرض ، وكان الجمال الذى قام هناك قد ولى ودفن تحت الرمال قبل أن يشرع المؤرخون الصينيون فى المر بأقلامهم على صحائف الورق • وكان جنكيز خان القوى « ١٥٥ ـ ١٢٢٧) هو الذى أعطى البلاد اسمها وشهرها فى العالم بتلك الغزوات التى قامت بها جيوش فرسان المغول فى جميع أسيا وفى جزء كبير من أوروبا • وكانت أرض المغول فى عهد كوبلاى خان ـ فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ـ اعظم امبراطورية عرفها التاريخ وليس لها منفذ الى البحر ، وفى عهد اسرة يوان (١٢٦٠ـ١٨٦٨) حكم كوبلاى خان وابناؤه الصين وكان اول امبراطور فى اسرة مينج هو الذى طرد المغول ، أما غزوات المغول للصين عبر السور العظيم خلال القرنين الخامس والسادس عشر فكانت احداثا ثانوية • وفيما تلا ذلك من تاريخ استطاعت قوى أخرى أن تجذب منغولياالى دائرة سلطانها ـ بكين وبطرسبورج وطوكيو وموسكو • ورويدا رويدا أخذ اشباه الدعاة فى منغوليا يصبحون تحت النفوذ الصينى وفى القرن السابع عشر اعترفوا بسيادة امبراطور مانشو فى بكين وأصبحوا فى القرون التالية رعايا صينيين اسما ، مثل سينكيانج والتبت تقريبا ـ وهما فى ذلك الوقت جزءان من الامبراطورية الصينية • ولم تتغير

الأمـور الا فى تلك الفترة التى يعالجها هذا الكتاب • ففى عـام ١٩٠٧ ـ العام الذى كانت فيه بريطانيا وروسيا تقسمان ايـران والتبت كانت روسيا واليابان بالمثل تقسمان شمال الصين • فتم الاعتراف بضم كوريا الى اليابان ، بينما اطلقت روسيا يدهـا فى منغوليا • واعترفت روسيا بجمهورية الصين بشرط أن تصبح منغوليا مقاطعة مستقلة ، جزءا من الصين رسميا ، لكن بمثابـة ولاية عازلة بين روسيا والصين • وكانت منغوليا عندئذ مجـالا يعمل فيه مقيم روسى يزاول مهامه من أوربا ، وينشر نفوذ روسيا الى تانو ـ تافا فى الشمال الغربى ، والى سنكيانج أو تركستـان الصينية فى الغرب ، والى التبت فى الجنوب الغربى ، حيث التقى بالنفوذ البريطانى • وجعلت منغوليا ـ التى كان يحكمها رهبـان البوذيين والنبلاء ، تتحين ساعتها •

وبدأ كل شيء يتحرك بفعل عاصفة الحرب العالمية الاولى • ففى عام ١٩١٩ قام الجنرال هسوشو ـ سينج ، احد الوردات الحرب البرابرة فى شمال الصين ، باحتلال منغوليا الخارجية مـؤقتا ، بدعوى منع انتشار البلشفية • وكانت هذه الخطة يابانية • وكانت الجيوش الحمراء فى سيبريا تقاتل الجيوش « البيضاء » والأجنبية عندما قتل كولشاك رميا برصاص احدى فرق الاعدام الحمـراء حاول احد اعوانه ، ويدعى البارون أوبخرن ـ شتير نبيرج ، القيام بثورة مضادة ، ولما اخرج من سيبريا جاء لى منغوليـا الخارجيـة حيث استولى فى عام ١٩٢١ عـلى اورجا ، وهى أولان باتوراليوم وكان اورجيون ـ شترينبرج من أصـل نصفه روسى ونصفـه مجرى ، فزعـم أنه من سـلالة باتو ، حفيد جنكيز خان ، الـذى قد حاصر بودابست فى عام ١٢٤٠ • وكان حلمه بعث الامبراطورية

المغولية واحياءها • وكان من افكاره الشاعرية ـ غير الواضحة تماما ـ قوله ان الدول لاتستطيع ان دبقى بغير ملوك مثلما لا تستطيع الارض أن تبقى بغير سماء • لكن افعاله كانت « نثرية » أكثر • وكان فى مايو عام ١٩٢١ قد ذبح جميع الصينيين فى منغوليا الخارجية ، فاستأنف الحرب من ثم مع البلاشفة وزحف الذى أصبح رئيسا للجمهورية الصينية فى عام ١٩١٢ بدل صنى الى بحيرة بايكال لقطع سكة حديد ماوراء سيبريا وتسليم شرقى سيبريا الى اليابانيين • لكن هذا لم يتم ، فقرب حدود امبراطوريته الجديدة صادف وحدة من الفرسان بقيادة « بودجينى » الذى صار فيما بعد يحمل رتبة مارشال الاتحاد السوفيتى فلقى البارون هزيمته ، واثناء هربه هاجمه الوعاة المغول وتركوه فى الصحراء حيث عثرت عليه القوات الروسية • وبعد محاكمة قصيرة أمام احدى محاكم الشعب ، تم اعدامه رميا بالرصاص •

وأدرك البلاشفة يسر الهجوم على جمهوريتهم من منغوليا الخارجية • وتناسوا لبعض لوقت سياسة مناهضة الامبريالية التى كانوا ينهجونها • وفى ٦ يونيو ١٩٢١ ، عبر ٦ آلاف رجل من القوات الحمراء الحدود • ولم يلبثوا أن أدركوا عدم الحاجة الى احتلال البلاد • فقد ثار صغار الفلاحين بقيادة ثوريين مغوليين من الوطنين أمثال سوكيباتور وشويبالزان وأخرين ضد سادتهم النبلاء وفى نفس هذا الصيف انشئت جمهورية منغوليا السوفيتية « مستقلة من الوجهة الرسمية ولكنها من الوجهة الواقعية مقاطعة من مقاطعات الاتحاد السوفيتى ، حتى بالرغم من الاعتراف نظريا بسيادة الصين عليها فى عام ١٩٢٤ •

لكن ، فلنعد الى اليابان • كان من سمات صحوة آسيا ــ وهى

ليست أقل السمات أهمية ـ ارتفاع جموع العمال الى مستوى الوعى الطبقى ـ فكانوا يطالبون فى ذلك الوقت بأن يوضع فى الاعتبار حقوقهم كآدميين وكذلك يوضع حد أدنى للاجور والغذاء والاسكان • وكان عدد العمال فى ميدان الصناعة قد تضاعف خلال الحرب ، كذلك كانت حالة الثورة بينهم قد تضاعفت وكانت النتيجة ، أو كانت احدى النتائج ، سن اول قانون عمال فى عام ١٩١٦ ، الذى منع تشغيل الأطفال ـ تحت سن الثانية عشرة فى المصانع ، وحدد يوم العمل لصغار العمال بين الثانية عشرة والخامسة عشرة ، بمقدار اثنتى عشرة ساعة ، كذلك سلم القانون بأجازة يومين فى الشهر • وقد واجه التشريع الاجتماعى نفس العقبات التى واجهها فى اوربا حوالى عام ١٩٠٠ ، وكان اصحاب الانتاج يناهضونه ـ يخشون من قلة الانتاج وزيادة النفقات دون أن يدركوا أن ظروف العمل الافضل تؤدى على طول المدى الى زيادة الانتاج ورخصه نسبيا • كذلك خاف البرلمان ، الذى كان بسبب قيود الاقتراح لايمثل فى الواقع الا الطبقة الحاكمة ، من الاضرابات والثورات ، فقبل اعضاؤه التشريع الاجتماعى لكنهم كانوا بطيئين فى اقراره كقانون • ولم يكن ثمة مفتشون للعمل فى أى مكان ومن ثم لم تكن رقابة على ماكان يحدث فى المصانع وكانت الاستثناءات التى أدرجت فى قانون عام ١٩١٦ كثيرة جدا حتى أن القانون لم يكن اكثر من مظهر ـ بل كان يمكن ان يسمى خدعا •

لم يكن هذا كله كافيا عند العمال فسعوا الاكراه اصحاب الانتاج وسلطات الموانى على أن تقوم باستحداث اصيلة ، كذلك بالسلاح الوحيد المتروك لأولئك ضعاف من الوجهة الاقتصادية ،

الى تحسين أوضاعهم بالتآلف والاضراب ٠٠ ولم يستطع قانون السلام ٠٠ المزعوم الذى وضع فى عام ١٩٠٠ وحظرت بمقتضاه كل أنواع الاضرابات ، ان يحول دون نمو النقابات ،لاسيما خلال الحرب ٠ وفى عام ١٩١٦ أعيد تنظيم اتحاد العمال الكبير » الذى أنشىء بمساعى الزعيم العمالى بوندشى سوزوكى فى عام ١٩١٢ ، كنقابة عمالية حقيقية ٠ وقد كافحت هذه النقابة على طول الجبهة ضد صناعة أثرت بين يوم وليلة وضد بوليسهاالسرى ٠ ولم يكن البوليس السرى من نسج سنى الحرب التىجاءتفيمابعد بل يرجع عهده الى عام ١٩١٦ واكتسب العمال خلال الصراع بصيرة فى موقفهم ٠ وتوالت الأفكار الاشتراكية عن طريق الصحف والنشرات والاجتماعات العامة ٠ كذلك لم يفتهم أن أرباح أصحاب الانتاج قد زادت الى حد كبير بينما كانت النتيجة الوحيدة للرخاء بالنسبة لعمال الموانى وأولئك العاملين فى مزارع القطن هى ارتفاع سعر الأرز ٠ وفى عام ١٩١٨ كان السيل قد بلغ الربى فقامت بعض النسوة من صائدات السمك فى الجنوب بنهب متجر للأرز ٠ وكانت هذه هى الاشارة لسلسلة من « ثورات الأرز » ، وخافت الحكومة من ثورة عامة ـ وكانت حوادث الشغب تحرجها بينما كانت الحرب لاتزال تجرى ـ فأمرت البوليس بالايتدخل فى الاضرابات الكثيرة غير المشروعة ٠ وامتدت الاضرابات حتى الى مستودعات الذخيرة وكان من نتائج ذلك وقوع تمرد بين القوات

وما لبثت النتائج السياسية ان ظهرت ، ولم يكن البارون تيروشى ، رئيس الوزراء الذى كان حاكما عاما سابقا لكوريا ـ ندا لمعالجة الحركة العمالية المتزايدة ، فأقصى من منصبه ليخلفه هارا اول رئيس للوزراء فى اليابان من غير النبلاء ٠ وهنا كان ثمة

خرق جديد للتقاليد الاقطاعية • كذلك أعيد النظر فى القوانين الانتخابية فى مارس عام ١٩١٩ بعد مظاهرة جماهيرية كبرى فى طوكيو • فضوعف عدد الناخبين وارتفع من مليون ونصف مليون الى ثلاثة ملايين • ولم يكن هذا الرقم كبيرا بالنسبة لتعداد يبلغ ٥٥ مليونا او ٧٧ مليونا اذا أضفت سخالين وفورموزا وكوريا • لكن ذلك كان أصلاحا عظيما بالنسبة لما سلف من أحوال وولى المبدأ القائل بان الفلاحين والعمال يجب أن تكون لهم كلمة فى حكم البلاد •

وعندما انتهت الحرب واجتمع مؤتمر الصلح فى منتصف يناير عام ١٩١٩ ، دعيت اليابان بوصفها حليفا لبريطانيا منذ عام ١٩٠٤ ودولة عظمى وفى هذا المؤتمر سارت الأمور علىى ما يرام بالنسبة لليابانيين ، فحصلت اليابان على الامتيازات الألمانية السابقة فى الصين ـ تلك الامتيازات التى كانت تحاول أن ترغم الصين على تسليمها لها فى « المطلبات الاحدى والعشرين » كذلك حصلت على جميع الجزر الألمانية فى المحيط الهادى . وقبلت بسرور مقعدا فى عصبة الأمم • ولكن عندما طلبت اليابان من العصبة أن تعلن أنه ليس ثمة عنصر أو جنس أقل مستوى من أى عنصر أو جنس آخر لم يستطع « الثلاثة الكبار » ويلسون رئيس الولايات المتحدة ، ولويد جورج رئيس الوزارة البريطانية وكليمنصو رئيس الوزارة الفرنسية ـ ان يفعلوا شيئا سوى رفض الطلب ، والأرجح انهم كانوا يعتقدون أن فى مقدورهم بهذه الوسيلة تأجيل تحرر أسيا وافريقيا • أو لعلهم استسلموا فقط لغريزة قومية •لكن من المحقق أنهم ما كانوا يدرون أنهم برفضهم هذا انما يزيدون الخطوات التى أصبحت بفضلها الشعوب الاسيوية ، مهما اختلف بعضها عن البعض

الآخر ، متحدة فى كراهيتها « للبيض » سواء أكانوا أوربيين أم أمريكيين ٠

فى ذلك الوقت كانت اليابان قد قامت بدور أكبر فى صحوة القومية الاسيوية على نطاق واسع ، وذلك بحقيقة توكيدها لنفسها كدولة عظمى « غير بيضاء » ــ وعلى نطاق أصغر بسياستهـــا الاستعمارية فى كوريا وفورموزا ٠ وقد عاملت اليابان كوريـا ــ التى ضمت اليها بطريقة بربرية ٠ وكل من درس السياســة اليابانية فى شبه الجزيرة لن يعتقد يقينا ان البيض فقط هــم الذين يجنحون الى قمع سائر الشعوب ٠ ولعل الثورة الوطنيــة العنيفة التى قامت فى مارس عام ١٩١٩ والتى اعلنت فيهـــا كوريا نفسها دولة مستقلة ، كانت فقط اشد المراحل عنفـــا فى مقاومة طويلة ، وربما تكون المخابرات اليابانية قد ضات عنملاحظة استعدادات الثورة ، لكن قمعها ، عندما بدأت كان شيئا يسيراعلى الدولة المحتلة ٠ وتفيد تقارير المصادر الكورية ان ٧ الاف وطنى لاقوا حتفهم من أجل استقلال البلاد خلال الاجراء اليابانى المضاد ٠ لكن الشهداء لايموتون عبثا ٠ فقد ادركت اليابان على مايبدو ان كوريا كانت تحكم حكما متطرف الشدة ٠ فقامت حكومة مدنيةمحل الحكومة العسكرية ، وكان من الممكن أن تحصل البلاد على الحكــم الذاتى ــ نوعا ما ــ لو كان الكوريون قد طامنوا من رغبتهــم فى الاستقلال ٠ لكنهم بالطبع لم يفعلوا ، فليس ثمة شعب يستطيع ذلك ذلك ٠ وساقت فكرة الحكم الذاتى الوطنين قدما فى طريق الحرية٠

وحتى لانتعدى الحدودالتى رسمناها لهذا الكتاب ، فسنعرض بايجاز لجزر المحيط الهادى ، التى اعلن فى فيرساى ــ فى مايو

عام ١٩١٩ ـ انها وضعت تحت ادارة اليابان ، وكذلك لسائر الجزر التى لعبت دورا بالغ الأثر فى التاريخ الحديث للشرق الأقصى وللعالم كله • ان اسماء جواد الكنال وتاراوا وبيكينى وأوكيناوا وابوجيما صارت معروفة لاكثر من سكانها ولاكثر من حفنة من قباطنة السفن •

ان التاريخ الحديث لجزر المحيط الهادى هو تاريخ الغزو الأوربى • ففى ٢٥ سبتمبر عام ١٥١٣ عبر الاميرال الأسبانى فاسكو نونيز دى بالبوا برزخ بناما وعثرجنوبهاعلى بحر غير معروف للاوربيين • فسماه الهادى « الباسيفيكى » وفى خريف عام ١٥٢٠ أبحرت سفن ماجلان البرتغالية الثلاث حول « اصبع » امريكا الجنوبية عبر المضايق التىلاتزال تحمل اسمه ،وعبرت الباسيفيكى الى الفيليبين • ثم تدفق الأوربيون ، كنحل اجتذبه العسل ، من كل حدب وصوب • فاكتشف الاسبان ميكرونيزيا وميلانيزيا وارتادوهما من الفيليبين فى عام ١٥٢١ الى جزر الهبريد الجديدة فى عام ١٦٠٦ وعرفت بولينيزيا ـ اى بالتقريب الجزر الواقعة شرقى خط الطول ١٨٠ درجة غربا ـ فى القرن السابع عشر ثم خاصة فى القرن الثامن عشر وذلك بفضل رحلات البريطانيين والفرنسيين والهولنديين • واكتشف الهولندى روجيفين ساموا وجزيرة « ايستر » الفريدة « اسمها الحقيقى رابانوى » فى عامى ١٧٢١ و ١٧٢٢ • واكتشفت بعثة فرنسية تاهيتى الغنية حوالىعام ١٧٧٠ • واكتشف الكابتن جيمس كوك الانجليزى هاواى • وفى القرن لثامن عشر ظن الأوربيون أنهم وجدوا هاهنا جنة الأرض فكان الملاحون يهجرون سفنهم جماعات الى الحوريات الراغبات فى تلك الجزر التى تظلها اشجار النخيل • ولما كان قباطنة السفن

لايريدون من السكان الصدوقين اكثر من الماء وجوز الهندالطازج فقد بقيت الجزر بغير احتلال الاوربين حتى مرت عليهـــا حقبـة كبيرة من القرن التاسع عشر •

لكن بدأ ثمة عهد جديد حوالى عام ١٨٨٠ ، عهد الامبرياليـة الجديثة ، عهد تقسيم العالم بين الدول الكبرى • فكما أن أفريقيا قسمت عامة الى جزء فرنسى وأخر بريطانى ، كذلك قسم المحيط الهادى بين المانيا وبريطانيا • فاذا قسمنا المحيط الى أربعة أقســام على طول خط الاستواء وخط التاريخ الدولى ، فالقسمان الشرقى والجنوبى هما بريطانيان على العموم والاستثناء الوحيد الملحـوظ هو جزر هاواى « الولايات المتحدة الامريكية » وتاهيتى « فرنسا » أما القســم الشمالى الغربى المانيا ـ غينيا الجديدة فى الشمـال الشرقى وجزر بسمارك « ١٨٨٤ » وجزر مارشال وسولومـــون « ١٨٨٥ » وماريانا وجزر النخيل وجزر كارولينا « ١٨٨٩» وفى هذا القسم لم يكن ثمة الا جوام وماركوس وديك ـ أمريكية

وهكذا نعود من جديد الى اليابان • فى عام ١٩١٩ حصـلت اليابان على جميع الممتلكات الألمانية شمالى خط الاستواء وايقظت جزر الباسيفيكى الألف والأربعمائة من سباتها • وحولتها الى قلعة لليابان ، التى أصبحت ـ نتيجة ذبح الأوربيين بعضهم بعضا فى الحرب العالمية الأولى ، ثالث دولة بحرية كبرى فى العالم وأول دولة كبرى فى آسيا •

٧

تايلاند ـ الهند وباكستان ـ اندونيسيا
الهند الصينية ، الملايو ، ايران وفغانستان

لم تكن الفورة التى حدثت فى آسيا مقتصرة على البلاد التى تعرضنا لها ، بالرغم من أن الفورات في هذه الدول كانت ثورية ، كما كانت اعظم شأنا فى أهميتها السياسية المباشرة ، من وجهة النظر الأسيوية ووجهة النظر الدولية معا • وسنحاول أولا ان نضع بايجاز الخطوط العريضة لصورة ما بقى من آسيا ـ أولا سيام ، تايلاند اليوم ، ثم الهند وباكستان ، جوهر الهند البريطانية ، ثم مستعمرة الهند الصينية الفرنسية ومستعمرةالملايو البريطانية ، وكلها فى المنطقة الداخلية لبلاد الارز المكتظةبالسكان وفى المنطقة الخارجية لايوجد الا دولة فارس المستقلة نظريا « ايران اليوم » وأفغانستان • وقد يبدو ان هذه الدول مرتبة ترتيبا تعسفيا ، ولكنه يتفق مع درجة الصحوة التى دبت فىهذه البلاد بفعل الحرب العالمية الثانية ، فأكبرها كان فى سيام ، فى الجارة الشرقية للهند البريطانية ، واقلها فى افغانستان جارتهافى الغرب • أما الفيلبين ، وهى فى تلك الفترة مستعمرة أمريكية ، وبورما ، التى كانت وقتئذ جزءا من الهند البريطانية ، ومصر ، التى كان البريطانيون لايزالون يحتلونها ، فتدخل فى هذاالترتيب فى الفترة الثالثة •

ولقد ظلت تايلاند لقرون طويلة متحررة نسبيا من التعـدى الأوربى ، لكن الأمور فى حوالى عام ١٨٨٠ اتخذت نفس النهج الذى كان يحدث فى افريقيا والمحيط الهادى فى ذلك الوقت • وفى عام ١٨٨٦ اصبحت بورما أرضا بريطانية ودخلت القوات الفرنسية لاوس • وبعد ان وصلت لندن وباريس الى اتفاق عام ، سياسى وعسكرى ، فى عام ١٩٠٤ ــ الاتفاق الودى ــ لم تستطع تايلاند ان تحتفظ باستقلالها المقيد الا لكونها دولة عازلة ــ شبه مستعمرة ــ بين الحراب البريطانية فى سالوين والملايو والحراب الفرنسية فى لاوس وكمبوديا • ولم تستحدث ــ أى تأخذ بأساليب العصر الحديث ــ الا الطبقات العليا الى حد ما ، ولم يكن لتايلاند فى الحرب العالمية الأولى أهمية الا بوصفها مستودعا للمطاط والخشب بالنسبة للبريطانيين ، وقد حاولت حكومة راما السادس فى بادىء الأمر أن تبقى محايدة ، لكنها ما لبثت أن أعلنت الحرب فى ٢٢ يوليو عام ١٩١٧ على المانيا والنمسا • وكان هذا ــ على نحو ما ــ مجرد لفتة ضد دولتين لم تكن غالبية الشعب السيامى قد سمعت عنهما قط • لكنه أيضا كان حماية للبلاد من خطر احتلال بريطانى ــ فرنسى ، كما كان وسيلة عملية للتخلص عـلى الاقـل من الحقوق الالمانية والنمسوية خارج أراضى البلدين • وكانت الحملة الضئيلة التى بعثت بها تايلاند الى فرنسا فى صيف عـام ١٩١٨ عديمة الأهمية اذا قورنت بالفرق الامريكية التى كانت تحارب وقتئذ فى الجبهة الالمانية المنهارة فى شمال فرنسا

ويصح أن نتريث لحظة عند هذه النقطة • فقـدوم هؤلاء الاسيويين الى أوربا البعيدة الغامضة هو فى حد ذاته أمر ذو شأن فقد عبروا قرى فرنسا ومدنها على طرق حديثة • وشاهدوا فى

كلَ مكان المصانع والسيارات وآلات الزراعة • كماشاهدوا فى مرة الاوربى فى دياره ، وعرفوا الفلاح والعامل الفرنسى ، لكنهم رأوا كذلك أوربا فى أحط حالاتها ، تنزف حتى الموت فى الوحل خلف أسلاك شائكة وسط كل تلك المظاهر من الحضارة الحقيقية أو المزعومة ، وعندما عادوا فى عام ١٩١٩ الى تايلاند وحقول الأرز فيها ، كانوا مفعمين بالافكار الحديثة ، تواقين الى كل ما حصلت عليه أوربا ، مما لم يكن لقراهم أو لزوجاتهم وبناتهم شيء منه •

كانت لديهم نفس الأفكار ونفس الرغبات التى كانت لسائر القوات « الملونة » فى جهات أوربا ـ البربر من الجزائر والمغرب والزنوج من أودية النيجر والسنغال ، وكذلك قرابة المائةوعشرين الف رجل من الهند البريطانية الذين جاؤا كوحدات مقاتلة أو كتائب عمل فى أوربا وبلاد ما بين النهرين وفلسطين ومصر والمستعمرات الالمانية فى شرق أفريقيا •

فى عام ١٨٥٠ أصبح ما يعرف اليوم بدولتى الهند وباكستان أرضا بريطانية على نحو نهائى ـ أو هكذا بدا الأمر فى ذلك الوقت وأضيفت بورما فى عام ١٨٨٦ وأصبحت الهند البريطانية بذلك أكبر مستعمرة فى آسيا ، بخلاف المناطق المستعمرة فىالامبراطورية الروسية • وكانت الهند البريطانية أرضا تضم ٦٠٠ ألف قرية يقطنها صغار الفلاحين ـ ثلاثة أرباع مجموع السكان ـ وكانوا اميين يضايقهم باستمرار نقص الغلال والجفاف والامطار الزائدة عن الحد • كانت ارضا تتردد فيها لغات عدة ، مقطعة الاواصر بسبب نقص المواصلات الجيدة وانقسام الأهلين الى هندوس

ومسلمين بنسبة خمسة الى اثنين · أرضا ضخمة تماثل فى حجمها نصف حجم اوربا ـ تصل فى عرضها الى ٢٥٠ ميل ، وتمتد من السهول الملحية فى الغرب الى غابات بورما الخشبية فى الشرق، ويحدها شمالا ثلوج « كاراكورم » الأبدية على خط عرض طوكيو وجنوبا رأس كوميرون على خط عرض سوماطرة الشمالية · هل هى بلاد غنية ؟ لا· اذا كنا نفكر فى الفلاحين والعمال · لكنها غنية اذا كنا نقصد المحاصيل · فهى تنتج الجوت والشاى والسكر والقطن ـ والجنود !

كان المسلمون خاصة هم الذين لم يذهبوا طواعيه الى الجبهة الغربية فى اوربا ، الم تكن الحرب ضد المانيا هى ايضاضدتركيا قلعة الاسلام ؟ لكن كثيرين من الهندوس استجابوا على مايبدو لغاندى ، الذى كان قد عاد من جنوب افريقيا وكان يبذل كل نفوذه لمصلحة البريطانيين · وكان موهنداس كارامشاند غاندى «١٨٦٩ ـ ٣٠ يناير ١٩٤٨ » قد ذهب الى بريطانيا فى عام ١٨٨٨ لدراسة القانون · واشتغل اولا محاميا فى بومباى ثم ذهب الى جنوب أفريقيا ، وهناك لاسيما فى ناتال والترانسفال كان يعيش كثيرون من المهاجرين من الهند الغربية ، الذين كان يعاملهم البيض ، كما كان الحال فى كينيا وتنجانيقا وموريتانيا كاحجار مرشوقة فى طريقهم ، تسبب المتاعب لهم · وهناك جرب غاندى خطته القائمة على المقاومة السلبية « ساتياجراها » ضد البوير الهولنديين ، ونجح فى ذلك ·

فلماذا اذن بدأ عند عودته الى بومباى مناصرا للبريطانيين ـ مخالفا بذلك كل ما كان يتوقعه الكثيرون من مواطنيه ؟ لاشك أن من أسباب ذلك اعجابه السابق ببريطانيا واوربا ، لكن السبب

الرئيسى على وجه التأكيد هو اعتقاده ، أو أمله ،أن بلاده تستطيع أن تطلب المزيد من بريطانيا اذا القت بقوتها فى حماس وولاء ضد المانيا وتركيا • وكانت الاتفاقية التى عقدت بين المؤتمر الوطنى الهندى « انشىء فى ١٨٨٥ » وبين الرابطة الاسلامية الهندية « انشئت فى ١٩٠٦ » فى لاخناو « لاكناو » عام ١٩١٦ هى أساسا من عمل غاندى • وطالبت المنظمتان الوطنيتان ـ اكبر منظمات الهند اطلاقا ـ من نائب الملك الجديد اللوردشيلمزفورد «١٩١٦ ـ ١٩٢١» اجراء انتخابات لاقامة مجلس تشريعى • وفى نفس الوقت زاد الراديكاليون حملة التهييج التى كانوا قد بدأوها مع بداية الحرب • فمضى تيلاك وأنى بيزانت ، الانجليزية التى أصبحت هندوكية الروح ، فى انحاء البلاد يدعوان الى الحكم الذاتى « ساواراج » بين قوم اثار حماسهم تلك الخطيبة النارية ساروجينى نايدو ، وقد اعتقلت ، كما احتجزت آنى بيزانت • لكن بريطانيا ادركت على أية حال أن تلك كانت أولى لفحات العاصفة التى جاءت فى لحظة جد حرجة ، ومن ثم أصدر وزير شئون الهند فى لندن فى ٢٠ اغسطس عام ١٩١٧ خطة لتنمية الحكم الذاتى كأول مرحلة فى طريق الحرية وفى عام ١٩١٨ سافر مونتاجو الى دلهى ووضع مع شيلمز فورد تقريرا نهائيا ضمناه تلك الخطط الغامضة بعض الشىء والخاصة بمنح الهند حكما ذاتيا محدودا ، عرف باسم اصلاحات مونتاجو وشيمزفورد •

كانت هذه المشروعات محدودة ، جد محدودة ، لو وضعت فى الاعتبار على ضوء ما توالى من أحداث • وكانت نتيجتها الوحيدة ـ كما هو الحال دائما ـ هى دفع الحركة الوطنية فاعلن المؤتمر

الهندى فى غير مضيعة للوقت أن هـذه الاصلاحات لاتصلح اساسا للمناقشة • ولعل القارىء على علم بالمثل اليـونانى الذى يقول « من لمرادت الآلهة أن تحطمه ، اعمته أولا » وقـد كانت جميـع الحكومات الاوربية • أمس واليوم ــ عميـاء فيما يتعلق بسياساتها الاسيوية • والاستثناء الوحيد هو المسلك المتسم بسعة الأفـق الذى اتخذته بريطانيا ازاء الهند وباكستان فى عام ١٩٤٧ •

لم تكن بريطانيا فى عام ١٩١٨ اكثر تحررا من اية حكومـة استعمارية اخرى • فكيف اذا كان رد الفعل لدى حكومة الهند البريطانية عندما ازداد سوء الموقف ، الذى كان قد ساد بسبب المجاعة وبسبب اوبئة الانفلونزا التى مات من جرائها كماذكرنا من قبل ٥ فى المائة من الأهلين ؟ وعندما أظهر الفلاحون والعمال روحا ثورية فى كل مكان متأثرين الى حد ما بما حدث فى روسيا بدلا من اجابة الشعب الى أقل رغباته ، ردت هذه الحكومة بقوانين رولات التى قضت بامكان سجن المهيجين والمثيرين بغـــير محاكمة (١٨ مارس ١٩١٩) • هل كان ذلك اجراء أحمق ؟ الأرجـــح ذلك ، بل المحقق انه كان كذلك •لكن يجب الا ينسى المرء ابدا أن الاوربيين كثيرا ما تصرفوا فى تاريخ صحوة أسيا بدافع الخوف الخوف من الوحش الاسيوى الكبير الذى كان عندئذ قد حفـز الى النشاط ، والخوف من سائر أصحاب الوحش من الاوربيين • وقد خشيت لندن ودلهى ــ فى الحالة التى نعرض لها ــ وبحق ، أثر الثورة الروسية ونفوذها ، كما خشينا على نحو اكبر اثر هيـاج المسلمين فى أسيا الغربية على الهند البريطانية ، لاسيما عــلى مقاطعاتها الاسلامية لكن قوانين رولات أسفرت عن عكس المقصود

منها • فمن جانب ، اصبحت المعارضة ، التى غالبا ما تفرقت ، والتى كانت تتألف من الهندوس والمسلمين والسيخ ، معارضة متحدة واحدة ، على الاقل مؤقتا • ومن جانب آخر • كان غاندى قد بدأ أول حملة كبيرة له من حملات المقاومة السلبية وعدم التعاون — التى أظهرت انها سلاح اكثر فاعلية مما كان البريطانيون بعقولهم الغربية ، يعتقدون • والى جانب ذلك كان البنجاب كله منطقة لاهور وامريتسار ودلهى تجعلها فى حالة ثورة متسمة بالفوضى •

فى هذا الجو المشحون ، وقع كالبرق الخاطف ذلك الحدث الذى عرف باسم « حمام دم أمريتسار » ــ ١٣ ابريل ١٩١٩ — وأرميتسار هى مدينة السيخ المقدسة • هناك أمر الجنرال داير ، الذى كانت قواه قد اختلت قليلا بعد محاولة وقعت لاغتياله ، قواته بان تفتح نيرانها على حشد من الناس العزل • وتفيد التقارير الرسمية ان ٣٧٩ شخصا قتلوا وان ١٢٠٨ قد اصيبوا بجراح • ولم يكتف داير بذلك بل أرغم الذين بقوا أحياء على أن يزحفوا فى الشوارع على ايديهم وركبهم • وهذا الحدث لايقارن الا « بيوم الأحد الدموى » الذى وقعت أحداثه فى بطرسبورج يوم ٢٢ يناير عام ١٩٠٥ ومن المحقق أن ستافورد كريبس ،الزعيم العمالى البريطانى ، كان يفكر فى ارميتسار عندما قال « ليس عليكم الا ان تنظروا فى صفحات التاريخ الامبريالى البريطانى ، لكى تخفوا رؤوسكم خزيا وعارا » ، وكان شعور المرارة فى الهند وباكستان اعظم وأوسع نطاقا من الشعور بالمرارة ازاء أى حدث آخر • ووصفت السلطات العسكرية هذا الحدث بأنه « خطأ فى الحكم والتقدير » وأعرب مجلس العموم عن عدم اقراره لما وقع •

وكأنما لم يكن ذلك كافيا ، فقد تحولت اصلاحات مونتاجو شيلمز فورد ، التى كانت قد وزنت فبخست أوزانها الى قانون باسم قانون حكومة الهند « ٢٣ ديسمبر ١٩١٩ » ووجد الضباط والمسئولون البريطانيون فى المستعمرة السيئة الحظ أن هذه الاصلاحات مبتسرة ، لكن لندن ودلهى أدركتا أن هذه الاصلاحات يجب ان توضع موضع التنفيذ ، حتى وان كانت الحرب قد انتهت • وفى اليوم الذى وضعت فيه هذه الاصلاحات موضع التنفيذ كانت بريطانيا تحتفل بعيد الميلاد « الكريسماس » فكان البريطانيون يأكلون كعكهم ويشربون الويسكى والشاى فى تلذذ وسرور دون أن يدركوا ، ماكان يمكن لطفل أن يدركه وهو ان ثلث آسيا قد ضج من السيطرة الأجنبية

كانت اندونيسيا فى هذه الفترة هى الدولة الاسيوية الوحيدة التى لم تزعجها الحرب ، وذلك بسبب بسيط هو أن هولندا بقيت محايدة • وكان ثمة مستعمرات أخرى كالهند البريطانية والملايو والهند الصينية والفيليبين قد أقحمت فى الحرب بدرجة أكبر أو أقل ، لمجرد كونها مستعمرات • وكانت تركيا والدول العربية والامبراطورية الروسية ومنغوليا قد اكتنفها أيضا القتال والثورة حتى الصين كانت كذلك ، وان كان ذلك بدرجة اقل • وارسلت اليابان قواتها الى الجزر الألمانية فى المحيط الهادى ، والى منشوريا وسيبيريا • وكانت ايران محايدة اسما ، لكن القوات الروسية والبريطانية والتركية كانت منتشرة فى انحاء البلاد كأنما لم يكن هناك حدود • وسنروى فيما بعد ماحدث فى افغانستان ، لكننا لانستطيع أن نصف مسلكها بالحياد •

وقصة اندونيسيا فى هذه السنوات ماهى الا قصة تغير فى الجو ، فى التواؤم الجديد الاجتماعى والسياسى ، ونضج الافكار الوطنية القومية • وان ماحدث فى الظاهر لايعطى الا صورةمهزوزة مشوهة للواقع والحقيقة • كانت تلك فترة تتحول فيها التجارة الى أسيا وأمريكا بدلا من أوربا ، وكانت كذلك فترة نشأت فيها بورجوازية أهلية ، تناهض التجار الاوربيين الذين كانت تعتبرهم قد أفرطوا فى أعمالهم • كذلك كانت تلك فترة انتشار الروح الثورية كصدى الى حدما للتحول العام فى سائر آسيا ، لاسيما للثورتين العربية والروسية ، لكنها كانت أيضا ببساطة نتيجة طبيعية للشعور الوطنى • كانت فترة انتشار الروح الثورية قد بدأت فى عام ١٩١٤ بمناقشات داخل صفوف الحركة الوطنية بشان مستقبل الدفاع الوطنى عن اندونيسيا • وقد نمت هذه الحركة خلال الحرب الى درجة كبيرة من الاحساس والوعى الذاتى فلم تصبح المقاومة ضد الطغيان هى وحدها العامل الذى يجمع صفوف الحركة ، وان كانت قد ظلت هى العامل الرئيسى على نحو واضح • وتزايد دخول الاشتراكية فى الحركه « ساريكات اسلام » • وكانت الأغلبية فى هذه المنظمة البورجوازية لاتزال من حيث المبدأ تقف ضد افكار الأقلية الصغيرة الشيوعية المنحى ، والتى كانت تستنكر كل نوع من أنواع الرأسمالية ، لا النوع الاستعمارى الأوربى وحده • وفى عام ١٩٢٠ انشىء الحزب الشيوعى الاندونيسى « بارتارى كوميونيز اندونيسيا » مغايرا للحزب الاشتراكى الديمقراطى الهندى الذى كان متأثرا بالاحداث فى روسيا • وفى عام ١٩٢١ خرج الشيوعيون من منظمة « ساريكات اسلام »

ويرجع انشاء اول نقابة عمالية اصيلة فى معامل تكرير السكر الى عام ١٩١٧ . وفى ٢٥ ديسمبر عام ١٩١٩ أقامت ساريكات اسلام اتحادا عاما ، البيرساتوان بيرجيراكان كاوم بوروه » ولم تكن هذه الراديكالية الجديدة قاصرة على الارخبيل . فقد اتحد الطلبة الاندونسيون فى هولندا فى منظمة « بيرهموناناندونيسيا» «١٩٢٢» وكان محمد حتى يمارس فيها نشاطا بالغا . وكشفت هذه المنظمة فى صحيفتها الرسمية « اندونيسيا ميرديكا » عن كونها مركزا بعيدا من مراكز حركة الاستقلال ، لكنه مركز واضح الرؤية حتى من بعيد .

ولو كانت المسألة فى يد الحاكم العام ، لربما استجابت هولندا عام ١٩١٨ على نحو معقول لمطالب الوطنيين العادلة . فقد كان الكونت ا.ب. فان ليمبرج ستيروم (١٩١٦-١٩٢١) حاكما تقدميا معتدلا . فقد ادرك ، بعكس حكومة لاهاى ، والمزارعين وبارونات «السكر» وكل الذين اعمت بصيرتهم الانانية والغطرسة ، انماكان يسمى فى هولندا بازدياد اضطراب الأهلين واستعصائهم على القياد كان فى الواقع صحوة السكان الوطنيين . الم تكن هولندا ترغب أو تزعم أنها ترغب ، فى هذه الصحوة ، عندما بدأت عام ١٩٠٠ مايسمى « بالسياسة لاخلاقية »

لكن الحكام العامين ، لاسيما أصحاب النظرة التقدمية منهم،لم يكن لهم فى المسألة الا كلمة قليلة فقد كان الحكام الحقيقيون لجزر الهند الشرقية الهولندية هم الوزراء فى لاهاى ، ومن ورائهم الرأسماليون الاستعماريون ، وأصحاب المزارع ، وشركات السفن

التجارية ، وشركات الزيت والتصدير ، وفوق هؤلاء جميعا « بارونات السكر » رجال مثل مديرى شركة « ندرلانديشن هاندل ميج » الذين كانوا قد اعتادوا القول ان فى مقدورهم ان يرعوا شئون الأهلين لكنهم اقدموا خلال مجاعة الارز الخطيرة فى عام ١٩١٨ على تحطيم مشروعات خفض زراعات قصب السكر من أجل استنبات الارز وهم قد فعلوا ذلك بالطبع لفرط طيبة قلوبهم ، اذ كان الطلب سيزيد على السكر بعد ما تنتهى الحـــرب الا ان ٦٠٠ الف من الاندونيسيين الجائعين ماتوا خلال وباء الانفلونزا

وفى النهاية كان رد الفعل لدى الحكومة الهولنـــدية فى اندونيسيا على نفس الدرجة من الغباء والافتقار الى حسن التصور ، الذى اتسمت به تصرفات حكومة الهند البريطانية • فقد حاولت تلك الحكومة ، بالنهج الهولندى الأصيل ، أن توقف تقدم التيار الوطنى ، وأن تصرفه عن مجراه ، بدل الترحيب به كعامل مثمر وكان التغير الرسمى الوحيد هو انشاء « مجلس للشعب » ١٨ مايو عام ١٩١٨) وكان برلمانا مزيفا لاحق له فى اتخاذ قرارات ، ولاحتى فى الشئون الداخلية ، وكان فى المجلس ، الى جانب رئيسه الذى يختاره التاج ثمانية وثلاثون عضوا ـ ١٥ من الاندونيسيين « ١٠ منتخبين و٥ معينين » و٢٣ من الأوربيين والاسيويين غير الاندونيسيين « ٩ منتخبين و١٤ معينين » وفى عام ١٩٢٠ تغيرت هذه الأرقام لتخفيض نسبة الاندونيسيين المنتخبين •

ان مافعلته هولندا عندما واجهتها صحوة شعب من أعظم شعوب أسيا ، لم يكن ليقارن الا قليلا بما اصبح فى رأى اى عدد

متزايد من الهولنديين ضرورة مرة ، وبما كان الوطنيون المعتدلون يعتقدون أن فى الامكان طلبه • وعندما نلقى نظرة الى الوراء، نرى أن حرب عام ١٩١٤ ـ ١٩١٨ لم تكن مرحلة غير هامة فى الزحف الى الحرية ، تلك الحرية التى لم تسقط كثمرة ناضجة فى حجر اندونيسيا •

وفى خلال الحرب العالمية الأولى أدخلت الأساليب الحديثة فى الهند الصينية بدرجة أقل مما أدخلت فى تايلاندوفى الهند وبأكستان وفى اندونيسيا بالرغم من اننا نستطيع هنا أيضا ان نرى الظواهر المختلفة التى هى سمات نقطة التحول الكبرى فى التاريخ الاسيوى • فأولا ـ ذهب قرابة ١٥٠ الفا من الانامين الى فرنسا كجنود وعمال وعادوا منها الى بلادهم ، كما فعل السياميون وسائر الاسيويين والافريقيين جميعا ،وهم مفعمون بالافكار والتجارب الثورية الجديدة • وكانت الصدمة الثانية للبلاد هى الطلب الكبير على المطاط خلال الحرب ، الأمر الذى دفع بالهند الصينية الى دوامة الاقتصاد العالمى • واحتل المستعمرة كلها ، من سايجون الى الحدود الصينية ـ وهى مساحة تبلغ ستة أمثال مساحة جاوه ـ الفان من الجنود الفرنسيين لاغير فقد كانت فرنسا تحتاج الى كل قواتها ضد المانيا وبدأت افكار الثورتين الصينية والروسية تتغلغل فى البلاد ، لاسيما فى الشمال ، الذى جرت التقاليد على كونه مجالا ثقافيا صينيا • ومن جراء هذا كله عمدت الحكومة فى باريس ، والحاكم العام سارو « ١٩١١ و١٩١٧ ـ ١٩١٩ » الذى لم يكن الوصول اليه متعذرا ، الى تقديم عروض جذابة بقدر أوفر من الحرية حتى انتهت الحرب •

لكن باريس فى عام ١٩١٩ نسيت فجأة على مايبدو كل ماكانت قد وعدت به فى سخاء ، تماما مثل بريطانيا فيما يتعلق بالهند وباكستان • وكما اختفى شيلمزفورد من الهند البريطانية عام ١٩٢١ وكما حل مراقب مهيمن استعمارى أصيل ، هو فوك ،محل ليمبورج سيتروم فى اندونيسيا ، كذلك استبدلت فرنسابسارو فى عام ١٩٢٠ موريس لونج ، الذى كان رجعيا بعض الشىء والذى لم يكن يحمل الا عطفا قليلا للحركة الوطنية بل عطفا أقل من القليل اذ كانت فرنسا قد ازدادت ولعا خلال الحرب بجنة الباسيفيكى • وعندما حاول الوطنى الراديكالى نجوين آى كيوك ـ الذى سنعرض له بالمزيد فيما بعد ـ ان يمثل امانى الاهلين فى فيرساى لم يحصل الا على القليل الذى حصل عليه الصينيون والايرانيون أوالمصريون لكن فترة المقاومة العاطفية المترددة كانت قد انقضت وبدات فترة المقاومة الايجابية الواعية ضد السيطرة الفرنسية • ولم يستطع لا المزيد من سياسة « الفرنسية » ولا الأساليب الضعيفة الخاصة بتقديم « نصف الأشياء » او تنازلات مزيفة فى سنى مابين الحربين ، لم يستطع هذا كله ان يوفر على فرنسا ضرورة ارسال شطر كبير من الجيش الاستعمارى ـ ٥ فى المائة من جميع الضباط الفرنسيين و٤٠ فى المائة من ضباط الصف ـ الى الهند الصينية بغية استبقاء الاحتلال ، على الأقل فى بعض المدن الكبرى والطرق الرئيسية •

وقد قامت الملايو ، جنة المطاط والزيت للامبراطورية البريطانية بثورة حقيقية فيما بين عامى ١٩١٤و١٩١٩ ، أكثر من اية منطقة أخرى ـ وان كانت تلك ثورة بالمفهوم الاقتصادى • لكن الوعى

بفكرة قومية لم يظهر • وكان مرد ذلك من ناحية الى ان الملايين الوطنيين لم تكن لديهم ثقافة على درجة كافية من الرفعة وكان مرده من جانب آخر الى شعور العداء المرير بين الملايويين ،وبين المهاجرين الصينيين والهنود والعرب ، فى تلك الفترة لم تتبلور أو تتضح افكار البريطانيين المختلطة بشأن مايمكن ان يسمى حقيقة بالامانى الوطنية •

ويجب فى ختام هذا القسم أن نعرض للدولتين اللتين تقعان فى المنطقة الخارجية ، أيران وأفغانستان ، دولتى الجبال والسهول اللتين كانتا فى عام ١٩١٤ تتاخمان تركيا غربا ، وروسيا شمالا والهند البريطانية شرقا • وفى خلال الحرب أعلنت ايران حيادها، لكنها كانت كلمة فارغة • وكانت البلاد أضعف من أن تستطيع الاحتفاظ حتى بمظهر الحياد • وكانت القوات الوحيدة الموجودة هى آلاى من القوزاق تحت قيادة ضباط روس • على الأقل كان ذلك حتى الثورة الروسية - ثم قوة صغيرة من الجندرمة ضباطها من السويد الموالين للألمان • والحق أن البلاد كانت مقسمة بين الروس فى الشمال وبين البريطانيين على الخليج • وكان النشاط الذى بذلته سلسلة من العملاء الألمان فى عام ١٩١٥ جد ملحوظ ونحن نعرف اسماء هؤلاء : واخموس ، القنصل الالمانى السابق فى بوشاير ، وينيدرماير وزوجماير • وكانت خطتهم هى اقحام ايران فى الحرب الى الجانب التركى ثم التقدم عبر افغانستان الى ماهو اليوم باكستان الغربية • وكان المعتقد فى برلين على مايبدو أنه اذا حدث ذلك ، فان الأهلين الوطنيين سيقومون فورا بدفع البريطانين المحتقرين الى البحر ، ومن ثم تسقط هذه المنطقة ، التى

وهى من أغنى المناطق المستعمرة فى العالم طرأ ،فى ايدى الالمان دون اطلاق رصاصة واحدة • وقد كانت هذه الخطة ، اذا نظرنا اليها نظرة جادة ، مجرد اضغاث احلام ، لكن هذه الحقيقة لم تمنع هتلر من ان يرسل العملاء الى ايران فى خلال الحرب العالمية الثانية قصد تنفيذ مهمة خاصة وهى العمل ضد البترول الروسى فى باكو وفى كلا الحالين كان الروس هم الذين احبطوا الخطتين الالمانيتين وفى نوفمبر عام ١٩١٥ احتلت القوات الروسية طهران ، وكان هذا خاتمة النشاط الالمانى • وفى مايو عام ١٩١٦ حاول الاتراك غزو ايران ، عندما اضطرت القوات البريطانية فى « كت العمارة » الى التسليم ، لكن الروس واجهوهم عند الحدود • ولم يتح لتلك البلاد التى تحملت الكثير ان تجد متنفسا الا فى عام ١٩١٧ ، ففى مارس من ذلك العام هزم الاتراك على أيدى البريطانيين فى بغداد واختفوا من أرض ايران • وفى نوفمبر — بعد الثورة — رحلت القوات الروسية كذلك •

كل هذا له شأن أكبر من أهميته التاريخية ، وذلك من حيث أن هذا التعدى من جانب الأجنبى زاد من تأجج نيران الوطنية الايرانية • وعندما احتل البريطانيون البلاد كلها فى عام ١٩١٨ ، لاخوفا من الالمان عندئذ بل لخوف اكبر من البلشفيك ، لم يستطع الايرانيون أن يفعلوا اكثر من تحمل هذا الاحتلال وتحين فرصتهم

ان المؤرخ فى وسعه ان يرى الكثير اذا رنا ببصره الى المصادر والمنابت • ففى عام ١٩١٩ أرسل الايرانيون وفدا الى فيرساى طالب بالغاء معاهدة التقسيم الانجليزية الروسية التى وضعت عام

١٩١٧ وكذلك الغاء الامتيازات ، والحرس العسكرى فى القنصليات الأوروبية واعادة القوقاز مع باطوم ، وهى جزء كبير من جمهورية تركمانستان السوفيتية اليوم ، وكذلك اعادة بلاد ما بين النهرين شرقى الفرات ، يعنى الموصل وبغداد • ويجب ان يعترف المرء بأن مثل هذه المطالب لاتخضع كثيرا لمفهوم الايرانيين للمواقع • لكن لم يكن فى المستطاع كشف مشاعر الايرانيين فى ذلك الوقت بأوضح مما ظهرت به • ومكان من الطبيعى ان يؤدى عدم اعتراف المؤتمر بالوفد ـ بناء على نصيحة بريطانيا ، الى اثارة الغضب فى ايران•• نفس الغضب الذى أثارته فى مصر معاملة مماثلة للوفد • وقد ظهر فيما بعد ، فى ايران ومصر ، كيف تأكل مثل هذه المهانة قلوب الألم •

كذلك ظلت أفغانستان ـ وهى دولة مستقلة نظريا ، وشبه مستعمرة لبريطانيا واقعا وحقيقة ، ظلت محايدة ولا شك ان المعونات الكثيرة التى كان يتلقاها الأمير حبيب الله قد لعبت دورا كبيرا فى هذا القرار • ولم يحقق العملاء الألمان والاتراك هنا اكثر مما حققوه فى ايران بالرغم من أنه من المحتمل أن تكون جريمة قتل الأمير فى ١٩ فبراير عام ١٩١٩ ، نتيجة غير مباشرة لمؤامراتهم ودسائسهم ومن الخصائص المميزة لتلك الفترة أن حكومة الانتقال التى اقامها نصر الله المحافظ خليفة حبيب الله ، لم تكن فى مركز يسمح لها باجراء اى تغيير ومع ذلك فان نظام القرون الوسطى بدأ يتحطم حتى فى افغانستان • وقد اختار الأمير أمان الله « ١٩١٩ـ١٩٢٩ » طريقا مختلفا • وقد كان مناهضا للبريطانيين على نحو جعله يبدأ عهده بهجوم على الهند القريبة ، متوقعا ، فى سذاجة

أن يعاونه الوطنيون الهنود فى طرد البريطانيين منها • وقد فشلت المحاولة بالطبع ، لكنها كانت رغم ذلك علامة من علامات ذلك العصر فانظر الى أى مدى كانت قوة الامبريالية الغربية قد هبطت اذا بنتيجة الحرب ، حتى يفكر أمير لأفغانستان بالفعل فى تحطيم الحكم البريطانى فى الهند وباكستان !

اذا لخصنا نتائج الفترة بين عامى ١٩١٤و١٩١٩ بالنسبة لأسيا لقلنا ان الاعتقاد السائد فى الغرب ، لاسيما بين الطبقة البورجوازية ، بأن صحوة أسيا هى كلها او جلها نتيجة الحرب ، انما هو اعتقاد خاطىء بل هو اعتقاد خطر مثلما هو ينذر بالماضى فأولئك الذين كانوا يعتقدون أن أسيا ، ستعود الى النوم من جديد متى عادت الأحوال العادية ، اضطروا الى مراجعة رأيهم حتى قبل عام ١٩٥٠ • ومن المؤسف ان يكون قلة من الناس فى الغرب هم الذين عرفوا وقتئذ ما قد شاع علمه اليوم ، ليس فقط بين الخبراء فى شئون أسيا ، وهو أن كلا الحربين العالميتين لم تفعلا اكثر من أن تدفعا وتزيدا من شدة تلك العملية التى كانت ستمضى الى تحقيق نفسها حتى بغير حرب ، ولربما كانت ستفعل ذلك على نحو اقل عصفا •

ولعل من العبث فى دراسة تاريخية أن نصدر حكما ضد دولة او طبقة معينة أو ضد مجال حضارى برمته ــ هو الغرب فى حالتنا فمن الأرجح ، بل حتى من المحقق انك لن تجد فى اى مرحلة من مراحل التوريخ دولة أو طبقة أو حضارة قد تخلت عن احدى مستعمراتها طواعية واختيارا وضد مصالحها • ولن تعثر بسهولة

اكثر على حالة من الحالات ، تخفى فيها احدى الحكومات ، وليس بقدر المستطاع ، نواياها الحقيرة ازاء الشعوب الأخرى • وليست هذه معالم فشل مميزة من جانب الغرب ، وليست هي كذلك دليلا على افتقار تام الى سياسة استعمارية • وان يكون من العدل ولن يكون من النهج العلمى أن نطالب الحضارة الأوربية فى هذه المسائل اكثر مما نطالب به أية حضارة أخرى ، ولا أن نتوقع منها مستوى اعلى للاخلاقيات السياسية • ومع ذلك فانه لشيء رهيب بالنسبة لأوربا ولآسيا الا يكون فى الغرب الا قلة قليلة تفهم ما كان يحدث فى آسيا وتدرك الثورة التى كانت مندلعة فى قلوب نصف سكان العالم ورؤوسهم • ان الطمع فى حد ذاته هو أساس جد مشكوك فيه لاقامة سياسات خارجية واستعمارية ، لكن الافتقار الى الفهم ولرفض ادراك الواقع والحقيقة هما اكثر خطرا • وقد ثبت ذلك فى الحرب العالمية الأولى ، وسيتضح على نحو أكبر ، كما سنرى عندما نعالج الفترة الواقعة بين عامى ١٩١٩ و ١٩٥٥ .

الجزء الثالث

الفعل ورد الفعل

يصدر يوم الخميس ١٤ مايو ١٩٦٤ .

كتب صدرت

١
كتاب
التحرير
السياسى

سقوط الامبراطورية

تأليف إدريس كوكس

ترجمة محمد رشاد خميس

كتاب التحرير
السياسي

آسيا المعاصرة

يقظة العملاق

تأليف :
البروفسور رومين
ترجمة :
يوسف صبري - عاطف الغمري

يطلب من دار التحرير للطبع والنشر

كتب قادمة

الرأسمالية
أمس واليوم

أرض الخطايا
فى جنوب افريقيا

تجربة الثورة
فى الجزائر

الصين الجديدة

ثورة غينيا
والتقدم الاجتماعى

كفاح السود
ضد التفرقة فى أمريكا

رياح الثورة
فى أمريكا الجنوبية

تطور الفكرة الاشتراكية

القاموس السياسى

الثمن ١٠ قروش وخمسة قروش لقراء الجمهورية والمساء

مطابع شركة الاعلانات الشرقية